الفصـــل الثالـــث

تاريـــخ جغرافيـــة المـــدن

تاريخ جغرافية المدن[أ]

نتتبع هنا بالتحليل والربط أهم الأعلام والعلامات التي حددت خط سير المادة. ويمكن أن نميز في قصة جغرافية المدن ثلاث مراحل تقريبية: **النشأة والتكوين والنضج.**

١ – **مرحلة النشأة.** إذا لم يكن للجغرافيا كعلم إلا تاريخ حديث لا يرتد إلى أبعد من منتصف القرن الماضي، فإن أصول جغرافية المدن أحدث، بينما تبلورها كفرع واضح في الجغرافيا هو أحدث وأحدث. ولا يزيد دور المدن منذ الفترة الكلاسيكية (ريتر – همبولت/ ١٨٠٠ – ١٨٥٩) حتى أواخر القرن عن الإشارة إلى "المدن الهامة" في الدراسات الإقليمية – عادة تحت عنوان "الطبوغرافيا"[١]. وهي تسمية على أساس لغوي[٢] وظلت شائعة حتى أواخر القرن الماضي. غير أنه ليس من الممكن ولا الإنصاف أن ننتظر أصول جغرافية المدن عند الرائدين لأن حياة المدن لم تكن تتعدى مرحلة الطفولة، فلم تكن الحقيقة المدنية بَعْدُ ظاهرة جغرافية كبرى في اللاندسكيب. ويكفي أنه حتى ذلك الحين لم يكن بالعالم إلا مدينة مليونية واحدة، ولم يكن في الإمكان التنبؤ بالمدن المليونية الحالية الثمانين أو نحو ذلك[٣] وربما كان راتزل F. Ratzel

---

(أ) انظر "جغرافية المدن"، القاهرة، مكتبة نهضة مصر، د. ن، ص ٣ – ٥٣.

(١) انظر مثل: Keane, A H, central & South America, Lond., 1911.

(2) Oxford Cnocise Dictionary, art., topography.

(3) Wooldridge, S, W, & East, W. G., Spirit & Purpose of Geog., Lond., 1950, p 24.

من أول من قام بمحاولة في "جغرافية مدن" منذ الأنثروبوجغرافيا Anthropogeographie في ١٨٩١. وهو الذي ندين له منذ ١٩٠٦ في "مقالات قصيرة Kleine Schriften" بالتفرقة بين فكرتين أساسيتين في الموضوع: الموقع Situation والموضع Site. ومن بعده أمكن اعتبار أوتو شليتر Sclüter المؤسس الأول لجغرافية المدن بمؤلفه ملاحظات على جغرافية السكن Bemerkungen Zur Siedlungsgeographie في ١٨٩٩. وكان أول كتاب يعالج جغرافية المدن العامة في مجموعها هو كتاب صغير ولكنه غزير المادة لكورت هاسرت K. Hassert في ١٩٠٧ بعنوان: المدن معالجة جغرافيا Die Städte geographisch betrachtet[1]. فجذور – أم هي بذور؟ – جغرافية المدن تقع زمنيا في الفترة ما بعد الكلاسيكية Post – classical (١٨٥٩ – ١٩٠٥)، وهي منذ مولدها علم ألماني الموطن بالضرورة شأنها في ذلك شأن الجغرافيا عامة حتى ذلك الوقت.

يمكن أن نضم إلى هذه الفترة الريادية بعض الأعمال العامة المنعزلة التي قامت خارج ألمانيا مثل كتاب بول ميريو Meuriot: Des Agglomerations urbaine dans l'Europe contemporaine في ١٨٩٧، ثم بعض كتابات p. Clerget، ولكن بوجه خاص كتاب رينيه مونييه Maunier الهام: L'Origlne et la Fonction économique des Villes في ١٩١٠، ولو أنه يلاحظ أنه معالجة اقتصادية واجتماعية أكثر منه معالجة جغرافية، كذلك ينبغي أن نذكر أن نشاط علم الإحصاء الجديد ومن قبله "الحساب السياسي political arithmetic" القديم، والديموغرافيا في تلك الفترة قد ساهم من ناحيته نحو إمكانية تكوين جغرافية مدن، ولا زلنا في بعض فصول المادة نقابل بعض الأسماء مثل Adna Weber, Ravenstein, Graunt. وتمتاز أواخر هذه المرحلة في العقد الأول

---

(1) Chabot, G., Les Villes, Paris, Colin, 1952, p. 17.

من القرن الحالي بانتشار الاهتمام الشديد بالمدن في مجالات عديدة: هندسة التخطيط، الاجتماع، الاقتصاد، العلوم السياسية والإدارة.. إلخ. وقد أخذت الجغرافيا تتشابك مع بعضها وتتداخل فكانت عملية إخصاب متبادل، تميز معظم العلوم الناشئة في مراحلها الأولى. ويمكن أن نلاحظ في هذه الفترة بعضا من التساوق الخاص في التطور بين جغرافية المدن وبين علم الاجتماع خاصة.

فكما بدأت جغرافية المدن من الاهتمامات الإقليمية العامة أولا، بدأ علم اجتماع المدن Urban Sociology من الدوافع الرومانتيكية الإنسانية التي أثارتها عند بعض المصلحين الاجتماعيين الصورة الاجتماعية الكالحة لحياة الفقر بين عمال المدن الصناعية الجديدة في عصر الرأسمالية والتصنيع. وتكاد تتعاصر أولى دراسات "ومونوجرافات" اجتماعية على المدن مع المحاولات التأسيسية في جغرافية المدن: فبين ١٨٨٩، ١٩٠٩ ظهر "مسح" تشارلز بوذ Booth الشهير للندن: Life & Labour in London، ومسح راونتري Seebohm Rowntree لمدينة يورك Poverty: A Study of Town Life. ثم ظهر على غرارهما في الولايات المتحدة مسح اجتماعي لشيكاغو ثم لبستبرج[1]. فإذا كانت الجغرافيا قد بدأت من الإقليم، فإن الاجتماع بدأ من المجتمع – من حالة السكان. ولكن كان الاجتماع طوال هذه الفترة بعيدا عن اجتماع المدن بمعنى الكلمة، فهذا لم يظهر إلا بعدها، بمعنى أن جغرافية المدن أسبق على وجه اليقين.

٣ – المرحلة التكوينية Formative. يمكن أن نعتبر الحرب العظمى الأولى خط التقسيم بين مرحلة النشأة التأسيسية والمرحلة التكوينية. فقد بدأ الاهتمام بالمدن ينتشر بين الجغرافيين في صورة دراسات تفصيلية خاصة "مونوجرافات" عن كثير من المدن الهامة أو الميسورة. وكان أنطوان فاشيه

---

(1) Ericksen, E, Gordon, Urban Behavior, N. Y., 1954, p. 9.

Vacher أول من نشر في فرنسا دراسة لمدينة تفصيلية – Montluçon – في ١٩٠٤. ولكن الدراسات لم تتعدد إلا منذ الحرب: دراسة بلانشار Raoul Blanchard الكلاسيكية عن جرنيوبل ١٩١١، ودراسة Levainville عن روان ١٩١٣. وبعد ذلك تقاطرت هذه الدراسات الخاصة في كل من ألمانيا وفرنسا حيث برز في ميدان المدن اسم بلانشار الذي درس على التوالي عددا الاجتماعية دراسة توزيعية مكانية داخل المدينة. مثال ذلك: The Gold Goast & the Slum لزوربا و Harvey Zorbaugh ١٩٢٩؛ الجيتو The Ghetto للويس ويرث Louis Wirth. ثم أضاف ماكنزي Roderick D. Mckenzie كتاب The Metropolitan Community ١٩٣٣ وفيه كانت نواة هامة لدراسات الإقليمية Regionalism والتنظيم المدني للمجتمع الحديث. وبعد هذا تشعب البحث في علم اجتماع المدن الذي ظهر أول كتاب أصولي فيه textbook في ١٩٢٩ أي في تاريخ مبكر نسبيا. ثم تعددت مثل هذه الكتب، وانتشرت الطريقة والأبحاث الإيكولوجية انتشارا هائلا لا يمكن تتبعه[1].

من هذا العرض نرى أنه إذا كانت جغرافية المدن قد بدأت علما ألمانيا خالصا، فإن اجتماع المدن بدأ علما أمريكيا بكل معنى الكلمة – لا أوربيا، ويعلل البعض هذا بانفجار حياة المدن في أمريكا والبعض بتوفر إمكانيات البحث في أمريكا عنها في أي مكان آخر, والبعض الآخر بطبيعة المدينة الأمريكية المركبة المخلّطة. ولا شك كما رأينا أن جغرافية المدن أسبق نشأة من اجتماع المدن، ولكن نشأة الأخير وإن تأخرت حتى العشرينات إلا أنها جاءت انفجارية فجائية، وولدت على درجة غير عادية من النضج، وعوضت قصر تاريخ حياتها بشدة نشاطها. ولكن الأهم من ذلك أنه على الرغم من أن جغرافية المدن كانت قد بدأت تدرس المدينة من الداخل إلا أن اجتماع المدن هو الذي نفذ إلى قلبها وحلل

(1) Bergel, Egon Ernest, Urban Sociology, Mc Graw- Hill, 1955, pp. Vii – 4 & Ericksen, pp. 8 – 11.

تركيبه بكل تفصيل وهو بلا جدال الذي أعطى لدراسته شكلها ومنهجها الأول والأخير. وعندما نتكلم عن شكلها ومنهجها فليس هناك سوى فكرة للمناطق الطبيعية والنظرية الخلقية. ولعل في هذه المتناقضة الكبرى: لأن هذا المنهج هو لا شيء سوى الإطار الإقليمي – الإطار الجغرافي الذي كان ينبغي أن يصل إليه الجغرافيون قبل الاجتماعيين! لا مفر من أن نقرر أن اجتماع المدن قد "استلب الأرض" من تحت أقدام "علم الأرض"! ومن الحق أن فكرة التعرف على مساحات بشرية متباينة داخل المدينة كانت بلا شك عنصرا ضمنيا مفروضا في معظم الدراسات الفردية الجغرافية، كما أن من الإنصاف أن لابلاش تكلم قبل ١٩١٨ عن نمو حلقي للمدن كجذوع الأشجار؛ فأثر القرون على نمو باريس هو "Like the cencentric rings of annual growth upon the severed trunk of a great tree"[١] ولكن التعبير القوي والإدراك الكامل الصريح لهذه المفاهيم والمبادئ كان من عمل اجتماع المدن. فالموقف يشبه شخصا ظل يجمع أو ينتظر ثروة شرعية تؤول إليه ولكن غريبا عابر سبيل خالي الذهن تعثر فيها فالتقطها! وليس من الصعب أن نعلل لهذا. فالجغرافيون قد بدأوا من الأرض – من الإقليم العام للمدينة فاهتموا بطبيعة الحال بالموقع والحجم والنمو والوظائف وركزوا عليها في هذا الإطار الكبير. ولكن الاجتماعيين بدأوا من الناس، من مجتمع المدينة وركزوا عليه تشريحا وتحليلا، فوجدوا أنه بطبيعته يتنضد في إطارات صغرى ولكنها مساحية: إقليمية، فأدخلهم هذا إلى الجغرافيا من الباب الخلفي – ولكن غزوا.. ولم يبتكر الجغرافيون للآن كما يلاحظ ديكنسون لفظا أنسب "للمنطقة الطبيعية" التي يسميها بلانشار تسمية غير موفقة: natural regions[٢]. ولنفس هذه الأسباب نجد أنه بقدر سبق وتفوق الاجتماع في الجغرافيا "الداخلية" للمدينة، بقدر ما تبدو معالجتهم غير مهضومة أو متمثلة

---

(1) Prinicpled of Human Leog., trans, Lond., 1926. p 477.

(2) Dickinson, Rober F., The West European City, Lond., 1951, p 11.

ثانيا.. ويكفي أن نتصفح أي كتاب حديث في اجتماع المدن لنجد الفصول الأولى منه جغرافية صرفة عنوانا ومادة كالموقع والموضع والأساس الجغرافي للمدينة أو الإطار الإقليمي للمدينة... إلخ. فمثلا يفرد كاربنتر فصولا "للموقع العام" والموضع "والإطار الطبيعي لحياة المدينة" والمدينة وإقليمها، تحتل أكثر من ١٠٠ صفحة من الكتاب أو نحو ربعه[١]. بالمثل يتكلم أريكسن عن "المدينة وقاعدتها الجغرافية" "والتكنولوجيا ومواقع المدن". أما برجل فيعقد بابا كاملا بعنوان صريح هو "الجغرافيا الاجتماعية"، فصوله مواقع المدن، والنمط الإيكولوجي للمدينة، والتغيرات الديناميكية في النمط الإيكولوجي. لكننا لن نخطئ في كل هذا التعرف على معالجة الهواة غير المحترفين amateurish.. مثلا يعقب برجل بابه "الجغرافية الاجتماعية" بباب بعنوان Typology يدرس الحجم والكثافة والتباعد والأنواع الوظيفية – كأنما ليس هذا من "الجغرافيا الاجتماعية" في شيء!... ولكن من الناحية الأخرى حتى لا يكون هناك شك في فضل اجتماع المدن على الجغرافيا فيما يختص بدراسة المدينة الداخلية يكفي أن نذكر تأخر ظهور كتب جغرافية في هذا الموضوع إلى الفترة القادمة؛ وأنها حين ظهرت كانت كل مراجعها تقريبا هي أعمال الاجتماعيين وخاصة مدرسة شيكاغو في إيكولوجية المدن، والمثل الواضح هو ديكنسون في City Region and Regionalism[٢] الذي يلاحظ أن عنوانه الصغير هو A Geog. Contribution to Hum. Ecology؛ كما ينبغي أن نذكر أن كثيرا من أعمال الجغرافيين في هذا الميدان نشرت في منشورات ومجلات علم الاجتماع – مثال ذلك فوست وديكنسون في Sociological Review في إنجلترا، وهاريس وأولمان Ullman في Amer. Jour. Of Sociolgy في أمريكا؛ ومرة أخرى نجد كتاب ديكنسون السابق ليس منشورا في سلسلة جغرافية مثل Methuens's

---

(1) Carpenter, Niles, Sociology of City Life, Longmans, 1932.

(2) Lond., 1947.

مثلا وإنما في International Library of Sociology & Social Reconstruction وكذلك كتابه اللاحق عن West European City!. بل إن نفوذ شيكاغو جذب إليها مدرسة ناشئة في جغرافية المدن في جامعة شيكاغو.

٣ – مرحلة النضج. بصورة عامة يمكن اعتبار الحرب الثانية نقطة التحول إلى مرحلة النضج. وربما كان أفضل أن نقول: إن جغرافية المدن قد بلغت سن الرشد. وأهم خصائص ذلك التطور خمس.

١ – بدء استقلال المادة عن دراسات المدن في الميادين الأخرى، وتبلور وجهة نظر واضحة وفلسفة مكانية أصيلة لها. فمثلا إذا كانت دراسة تركيب المدنية الداخل قد استمد غالبا من مدرسة شيكاغو، فقد تبلورت وجهة النظر الجغرافية في هذه الدراسة في مدرسة مثل مدرسة جرينوبل école de Grenoble تحت توجيه ونفوذ بلانشار[١] كذلك كثر عدد المتخصصين في المادة بين الجغرافيين، وأصبحت تحتل باستمرار مساحة كبيرة من كل الدوريات. وإذا كانت نسبة كبيرة من البحث لا زالت تغطي دراسات المدن المفردة التفصيلية، فقد قطعت أبحاث الربط والتقنين شوطا كبيرا، وأصبح هناك وعي تام بضرورتها. فيقول ديكنسون:

"There is a plethora of urban geographical studies, and the choice of just another town is the line of least resistance for many a young graduate student. We need a clear exposition to the social sciences of what urban geography is, and the student of georgraphy requires a clear portrayal of the field, and suggestions of meaningful lines of research, especially, in the field of comparative urban geography."[٢]

---

(1) Tricart, J., Cours de Geog. Hum., Fasc., 11, Habitat Urbain, Paris, 1958, p. 4.

(2) Reviewing Taylor's Urban Geography, in Geog. Rev., April, 1950, p. 340.

فأخذت الجغرافيا تعيد النظر في كثير من الحقائق التي نقلتها خامة غير مهضومة من العلوم المرتبطة، ولو أنه لازالت هناك مادة خام غير جغرافية تماما في كثير من الدراسات المدنية الجغرافية. وبدأت تتكشف بعض متناقضات في المادة: مثلا يقرر جفرسون:

"The Primate city therefore expresses the national disposition more completely than any other city"(1)

بينما يكتب برجل:

"Because of its international character the metropolis is less representative of a country than its smaller cities"(2)

وبالمثل قارن بين هذين الرأيين. يقول تيلور:

"After all it is not the national character of a town that the geographer is primarily anxious to ascertain. In the case of the present writer it is the site and the evolution which are of most interest"(3)

هذا بينما يقرر سور Sorre(٤).

"Elle (la ville fait partied u paysage. Elle contribute à lui donner son caractère. Il ya dans le plan, dans la physionomie d'une ville éspagnole, d'une ville française, d'une ville américaine, d'une ville allemende, d'une ville musulmane,

---

(1) Jefferson, Mark, "Law of the Primate City", Geog. Rev April, 1939, p 229.

(2) P. 132.

(3) Taylor, Griffith, Urban Geography, Lond, 1949, p. 8.

(4) Sorre, Max., Les fondements de la Géog Humaine, Paris, 1952, t, III, p. 175.

quelque chose de specifique. Elles semblent exprimer les caractères du pays ou elles ont grandi".

ب – من ناحية أخرى أخذت "القوانين" أو بالأحرى المبادئ والأفكار الكلية تتزايد بصورة مشجعة. فرغم أن كريستلر توصل إلى قوانين التباعد والحجم منذ ١٩٣٥ إلا أن مناقشة الموضوع اتسعت في الفترة الحديثة خاصة في أمريكا حيث اشترك فيها أولمان وبريسي Bracey وغيرهما. وفي ١٩٣٩ وضع چفرسون قانونه المشهور عن المدينة الأولى primate city وصراع المدن من أجل الحجم؛ ولو أن من الإنصاف أن نذكر أن فوست توصل في ١٩١٨ إلى الفكرة الأساسية وألمع إليها دون أن يبلورها[1].

جـ – كذلك دخلت جغرافية المدن بابا جديدا هو إقليم المدن City Region والمجال المدني Urban Field وما ارتبط به من دراسة الإقليمية Regionalism. ولم تكن هذه الدراسات جديدة تماما على المادة، فبذورها الأولى يمكن أن نجدها في كتاب فوست الهام Provinces of England في ١٩١٩. وكان اجتماع المدن قد طرقه كذلك بتوسع، ولكن في هذه الفترة بدأ الموضوع يأخذ طابعا جغرافيا قويا ومساهمة جغرافية خطيرة. أي أن دراسة إقليم المدينة أحدث زمنيا من دراسة داخل المدينة. وفي هذا المجال أضفت جغرافية المدن إلى أنواع الإقليم في الجغرافيا إقليما جديدا أصبح على جانب كبير من الأهمية العملية: إقليم المدينة. وقد شارك في هذا اللون في إنجلترا بعد فوست ديكنسون وسميلز وجلبرت وبريسي، وأقام له الاتحاد الجغرافي البريطاني Geog. Association لجنة خاصة دائمة. واهتم شابو Chabot بهذه الدراسة في فرنسا، وظهرت مدرسة لند Lund School في السويد على

(1) Fawcett, C. B. "The position of Some Capital Cities", Geog. Teacher, 1917 – 8, p. 243.

يد إدجار كانت Kant. ولا جدال في أن الاهتمام بالمجال المدني يرتبط أصلا بأبحاث كريستالر. وعدا هذا فإن هذا الموضوع اقترب بالجغرافيا من علم آخر هو الاقتصاد في عملية تداخل تشبه ما حدث بينها وبين اجتماع المدن في الفترة التكوينية. فليس من الصدفة أن يظهر في ١٩٣٩ كتاب الاقتصادي الكبير لوش August Lösch بعنوان:

Economics of Location. A Pioneer Book in the Relations Between Economic Goods and Geography[1].

والكتاب كله بحث مركب في إقليم المدينة وفيه يتوصل الكاتب – مستقلا – إلى نظرية مثل نظرية كريستالر إلى حد بعيد. ومنهج الكتاب جغرافي أساسا، هو الإطار والنمط المكاني الذي تتخذه الحقائق الاقتصادية، كما أنه يعتمد على دراسات الجغرافيين باستمرار. وهناك يمكن القول بأن جغرافية المدن ردت دينها لاجتماع المدن وإنما إلى علم آخر هو الاقتصاد. وأخيرا فقد قاد هذا الاهتمام بإقليم المدينة والريجيونالزم إلى دخول جغرافية المدن الميدان التطبيقي رغم أن جذور هذه الدعوة تضرب في أوائل الفترة التكوينية[٢]. وكانت جغرافية المدن بذلك من أول من دخلها من فروع الجغرافيا رغم أنها من أحدثها نشأة.

د – من خصائص الفترة ظهور الكتب الأصولية textbooks في المادة. ويجب ألا نقلل من قيمة هذه الظاهرة، لأن خروج مراجع أصولية في مادة دليل على استقرارها ونضجها، ودليل على محاولة في وضع أصول وقواعد وهيكل مبوب متكامل لها، وهذا أمر شديد الأهمية في وقت انتشر فيه الاستياء والشكوى من تأخر تكوين جغرافيات بشرية أصولية ناضجة تعطي المادة قيمة علمية محترمة[٣]. صحيح إن عدد هذه الكتب قليل قد لا يتعدى حتى الآن عشرة في

---

(1) Trans., New Haven, 1954.

(2) "Geographers and Town Planning," Geog. Teacher 1917 – 8. p. 106.

(3) Kimble, G. H. T., The Inadequacy of the Regional Concept, in London Essays in

اللغات الشائعة، وصحيح إن بعضها مجرد تجميع غير نقدي أو إنشائي يعتمد على تلخيص دراسات المدن المفردة السابقة أو رصها، ولكن بعضها وضع بلا شك الأسس الحقيقية لجغرافية المدن الأصولية مثل كتاب شابو Les Villes، وسور في عمله الضخم Fondements de la Géog. Humaine، وسميلز Geog. Of Towns وديكنسن City Region & Regionalism، وبيير جوج: La Ville; Le Fait urbain à travers le monde[1].

وسنعود إلى مناقشة هذه المؤلفات في دراستنا لتصنيف جغرافية المدن.

هـ - أخيرا أخذ التخصص التفصيلي داخل المادة يبدأ في هذه الفترة فكثير من يتخصص حاليا في "إقليم المدينة" مثل سميلز وبريسي وجرين، والبعض يتخصص في جغرافية الموانيح Port Geog. "مثل Guido Weigend، ومورجان F. W. Morgan، والبعض في الريجيونالزم مثل جلبرت وبيكر وديكنسون.. إلخ.

ثانيا - طبيعة جغرافية المدن

المدينة، كغيرها من الظاهرات التي تدرسها الجغرافيا، ليست "حقيقة" جغرافية - بمعنى أنها ليست حكرا خاصا للجغرافيا، بل هي موضوع دراسة علوم أخرى كثيرة: التاريخ والاجتماع، الإدارة والسياسة، الهندسة والعمارة.. إلخ. ولا مفر بالتالي من أن تستخدم وتتداول هذه الدراسات أحيانا، وربما كثيرا، نفس المعلومات أو الحقائق لأغراضها. فما الذي يميز بينها، ويحفظ لها استقلالها العلمي؟ ما الذي يبرر وجود جغرافية المدن كعلم بين وإزاء اجتماع المدن، وهندسة المدن، واقتصاد المدن.. إلخ؟ إن جغرافية المدن في هذا المجال هي كالجغرافيا عامة بين العلوم: فلسفة معينة - وجهة نظر، أكثر منها مجموعة

Geog., ed., Stamp & Wooldtidge, Lond., 1951, p. 174.

(1) Paris. 1952.

من الحقائق أو جسما من المعلومات. والواقع أن تعريف جغرافية المدن لا يمكن فصله عن إطار مشكلة تحديد طبيعة الجغرافية كلية.

١ – فإذا قلنا مع التوزيعيين إنها توزيع الظاهرات المدنية على سطح الأرض فإن هذا يفقد المادة مبرر وجودها ويفقدها تميزها عن اجتماع المدن وكذلك عن اقتصادها. لأن هذه العلوم الأصولية systematic sciences لكي تصل إلى القوانين والعمليات الأساسية التي تحكم ظاهراتها الاجتماعية أو الاقتصادية في المدينة من الداخل أو الخارج لابد أن تتعرف على توزيعها. والواقع أن تطور الاقتصاد الحديث مر في ثلاث مراحل كما يتبين من لوش[١]؛ فبعد أن كان الاقتصاد الكلاسيكي يسعى إلى القوانين المجردة في إطار فرضي، انتقل إلى مرحلة تتبع الأدوار والمراحل التطورية الاقتصادية أي انتقل إلى العنصر الزماني، وأخيرا أدرك القيمة القصوى للعنصر المكاني والإطار المساحي فكانت مدرسة "الباحثين في المكان Raumforscher"[٢] التي تبلورت على يد لوش وإن كانت ترقى إلى فون تينن V. Thünen ونظريته الحلقية المشهورة. وبالمثل مر علم الاجتماع في نفس المراحل: من النظريات المجردة الكلية لمدرسة كومت Positivism، إلى الفكرة التطورية الجامحة، إلى العنصر والأساس المكاني في صورة المدرسة الإيكولوجية. وكما أن اقتصاديا لا جغرافيا – فون تينن – هو الذي توصل إلى النظرية الحلقية في الاستغلال الاقتصادي land use، فقد رأينا أن اجتماعيا لا جغرافيا – بارك – هو الذي وضع نظرية المنطقة الطبيعية، وأنه اجتماعي مرة أخرى الذي وضع النظرية الحلقية لنمو المدنية – ماكنزي، وهي النظرية التي تقابل في الاجتماع نظرية تينن في الاقتصاد، أو التي هي امتداد من نوع آخر داخل المدينة لحلقات تينن

---

(1) Lösch, p. 93.

(2) Ibid., p 349.

خارج المدينة. وفي كل هذه الحالات كان الأساس هو التوزيع بصورة قاطعة فالتوزيع إذن ليس حكرا للجغرافيا، وليس هو الجغرافيا، وإن كان مادتها الخام الرئيسية الأساسية غالبا[١]. وحين يستخدم اجتماعي أو اقتصادي المدن التوزيع لا يكون التوزيع هدفا أو غاية بل عارضا ووسيلة، وسيلة نحو فهم أفضل للغاية الحقيقية: قانون الظاهرة الاجتماعية أو الاقتصادية المعنية: فالعملية Process لا النمط Pattern هي الغاية[٢]. ولكن الجغرافي من ناحيته وإن بدأ من التوزيع والنمط إلا أنه بالنسبة إليه وسيلة أيضا لا غاية رغم ما يبدو في ذلك من غرابة. وسيلة نحو فهم "شخصية الإقليم". ولهذا السبب فإن اجتماعي المدن حين يناقش المظاهر الاجتماعية لمنطقة المدينة فإنما ليتفهم عمليات النمو الاجتماعي فيها من تركز concentration أو عزل segregation أو غزو invasion أو تتابع succession أو اضطراب disorganization لا ليبرز الشخصية الاجتماعية لها، فهو لا يعني بالمنطقة ذاتها ولكن بالظاهرات التي فيها. ولما كان النمط التوزيعي هو النتيجة الأخيرة للعملية، فمن حقه أن يدرسه. وهو حين يدرس توزيع هذه الظاهرات يشارك في صفة الجغرافي التوزيعية، ولكن لا يصبح جغرافيا[٣]، أكثر مما يصبح الجغرافي جغرافيا بالتوزيع فقط. فالتوزيع ليس علما، ولكنه "منهج بحث" مفتوح لكل العلوم – جغرافية وغير جغرافية على السواء، لكنه ليس أحدها – ليس العلم الجغرافي على أي حال. بل أكثر من هذا، إن الجغرافي – مثاليا – يتسلم بل ينبغي أن يتلقى توزيعاته من الأخصائي الأصولي – علم اجتماع المدن أو اقتصادها urban economics هنا، وبعد

---

(1) Hartshorne, Richard, The Nature of Geography, A. A. A. G., Lancaster, 1939, p. 418 & Watson, James Wrford, The Sociological Aspects of Geog, in Taylor's Geography in the Twentieth Century, Lond., 1951, pp. 476 - 7.

(2) Watson, p. 470.

(3) Ibid, p 476.

ذلك يبدأ دوره الأصيل[1]. وذلك لأن تحديد قيمة ومعنى الظاهرة التوزيعية يتوقف على فهم "العملية" التي ترقد تحتها، والأصولي لا الجغرافي هو الذي يقوم بهذا[2]؛ ولهذا فليس هناك في الحقيقة غرابة أو تناقض في أن الاجتماعي وصل إلى "المنطقة الطبيعية" قبل الجغرافي، إلا لأن الأخصائيين الأصوليين عامة أهملوا من الناحية التاريخية الواقعية نواحي التوزيع الخاصة بهم بحيث تعود الجغرافي أن يقوم بها تقليديا.. ولو كان التوزيع هو الجغرافيا لكان اجتماعي المدن أقدر من جغرافي المدن في هذا المضمار كما يوضح واطسون، ولما كان لها كيان مستقل، ولما زادت عن خادمة أو تابع لاجتماع واقتصاد المدن: فليست جغرافية المدن مجرد الإطار المساحي أو المكاني لإيكولوجية أو اجتماع المدن أو غيرهما. ومن ناحية أخرى لو كان التوزيع هو الجغرافيا لكانت المادة وصفية لا تعليلية، سطحية تطرب "للزخارف" patterns لا وظيفية functional هادفة. ومن ناحية ثالثة لعدمت الترابط الداخلي بين عناصرها، أي لما كانت جسما موحدا unified، إذ ما الذي يجمع حينئذ بين عناصر شتى متنافرة كالموقع والطبقات الاجتماعية والموضع والوظائف.. إلخ؟ إن هذا يعود بنا إلى فتح الباب للسؤال الذي أثاره – ولو لهدف آخر – چورج جرلاند Gerland في القرن الماضي حين تساءل: "أي نوع من العلاقة يوجد في حقيقة مثل وقوع روما على التيبر، أو پراغ على المولداو؟ النهر والمدينة فكرتان متنافرتان لا يمكن للجغرافيا أبدا أن توحد منطقيا". ثم يضيف أنه لما كان نهر المولداو بالذات ليس ضروريا منطقيا لمدينة پراغ بالذات، أو العكس، "فليس ثمة علاقة داخلية[3]". والرد بطبيعة الحال هو أنه لولا المولداو بالذات لما كانت پراغ ما هي بالذات – بصرف النظر عن الأسماء التي لا قيمة لها! فالتعريف

---

(1) Hartshorne, pp. 14 ff.

(2) Watson, p. 476.

(3) Hartshorne, pp. 114 – 5.

التوزيعي يمكن أن يفقد المادة وحدتها الداخلية ويفتح الباب لاتهام جغرافية المدن بأنها مجرد علم مركب merely a composite subject، وأنها ليست أكثر من أجزاء من العلوم الأخرى[١] – بضعة حقائق من هندسة المدن، وحفنة من اقتصاديات المدن، وديموغرافية المدن urban demography، واجتماع المدن، وإدارة المدن civics... إلخ. وفوق هذا فإذا كانت جغرافية المدن هي علم التوزيعات المدنية لدرست بلا أدنى تمييز كل ما في المدن من ظاهرات؛ لأن كل ظاهرة فيها تقع في مكان منها بالضرورة! فيصبح لا مانع من أن ندرس توزيع الحركات السياسية أو المدارس الفنية في المدينة! فالتعريف لا يخبرنا أي الظاهرات يمكن أن تعتبر ذات مغزى جغرافي، أي أنه فاقد للأساس الانتخابي للظاهرات، وهو حقيق بذلك بأن يخرجنا عن نطاق جغرافية المدن السليم. ولهذا كله فليست جغرافية المدن هي توزيع – أين The where – الظاهرات المدنية[٢].

٢ – فهل هي علم العلاقة بين الظاهرات المدنية وغيرها من الظاهرات والحقائق الطبيعية والبشرية؟ هل هي علم "العلاقات المدنية" Urban Ecology كما يرى البعض أن الجغرافيا هي علم الإيكولوجيا البشرية Human Ecology[٣]؟ قد يمتاز هذا التعريف عن التعريف التوزيعي بأنه يضمن مبدأ السببية والتعليل ويطرد السطحية الوصفية الجوفاء، كما يضمن وحدة العلم الداخلية بالترابط السببي والتفاعل الإيكولوجي بين عناصر الظاهرات المتنافرة فيه أي بقطع الطريق على مغالطة مثل مغالطة جرلاند السابقة. ولكنه يثير اعتراضات خطيرة. فهو – بالمنطق – يحث على البحث عن العلاقات، عن مزيد من

---

(1) Fairgrieve, James, Geography in School, Lond., 1949, p. 18.

(2) Hartshorne, pp. 127 – 9.

(3) Barrows, Harlau H., "Geog. As Human Ecology", A. A. A. G., March, 1923, pp. 3 ff.

العلاقات[1]، أي يدعو إلى علم "الأساس الجغرافي للمدن" Geog. Basis of Towns، "والعامل الجغرافي" في المدن "Geog. Factor"، إلى علم تلاؤم وتكثيف المدن Adaptation[2]. وفي هذا – بصرف النظر عن أنه قد يضيق نظرة المادة إلى مجالها – لا يمكن إلا أن يحض على الحتم الجغرافي[3]، على حتم الموضع والموقع، ويفتح بهذا قضية حسبناها طويت، وأن الحتم الجغرافي "ميت كالدؤدؤ – as dead as the dodo"[4].. وقد يدفع هذا الاتجاه الحتمي إلى غلو في رد الفعل بين الاجتماعيين فيقللون من ناحيتهم من فاعلية هذه العناصر أكثر مما ينبغي، والنهاية هي فقدان الفهم المتزن لعنصر النسبية الأصيل في عوامل وعناصر جغرافية المدن[5].

ولكن الاعتراض الأخطر على التعريف أنه يفقد المادة مبرر وجودها. فإذا كانت العلاقات هي الهدف فإن دراسة العلاقات هي دراسة للعمليات Processes. صحيح إن العمليات تؤدي إلى أنماط توزيعية، ولكن دراسة العمليات ستخرجنا من المنطقة إلى دراسة في الأصول genetic – في حالة المدينة إلى دراسة في القوى الاجتماعية social forces والتوازن أو الصراع بين المجموعات الاجتماعية، أي التفاعل الاجتماعي وعمليات التلاؤم فيها.. إلخ، أي إلى التفسير الاجتماعي لاستعمال المكان a social interpretation of the use of space والتركيب المكاني أو المساحي لمجتمع المدينة spatial structure of society. ويصبح الهدف في كل هذا هو المجتمع وتنظيم

---

(1) Hartshorne.

(2) Watson, pp. 477 – 80.

(3) Hartshorne.

(4) Dickinson, Review of Taylor's Urban Geog., loc. Cit., p. 340 & Spate, O. H. K., "The End of an Old Song? The Determinism – Possibilism Problem", Geog. Rev., April, 1958, pp 288 -2.

(5) Sorre, pp. 211 – 4 & West European City, p. 6.

المجتمع urban community organization لإقليم المدينة كظاهرة جغرافية. ولكل هذا تحتاج لا إلى جغرافية وإنما إلى اجتماعي، فهو بالتأكيد الأصلح لدراسة العمليات والعلاقات الاجتماعية وعلاقتها بالإطار المكاني. وإذا كان علم الاجتماع قد استنكر الحتم الجغرافي، فإنه لم ينكر الأهمية الكبيرة لعامل المكان، العامل الجغرافي، في دراسة المجتمع لأنه لا يمكن دراسة المجتمع في "فراغ" وإنما في واقع بيئي. فاتجه إلى دراسة العلاقات البيئية لمجتمع المدينة في صورة الحركة الإيكولوجية؛ فإلى جانب الإيكولوجيا الاجتماعية Social Ecology العامة لعلم الاجتماع، كانت الإيكولوجيا المدنية Urban Ecology الخاصة بعلم اجتماع المدن. ولن يمكن لأحد أن ينكر أن لأي علم أصولي أن يدرس ضوابط ظاهرته – بما فيها العامل الأرضي. أي أن دراسة العلاقات جزء مشروع من عمل اجتماعيٍّ المدن. وهنا تصبح جغرافية المدن إذا اعتبرناها إيكولوجية المدن علما طفيليا فضوليا، ويفقد استقلاله. كل هذا مع ملاحظة أن الإيكولوجيا في الواقع – كالتوزيع – منهج بحث هام.

٣ – ما هي جغرافية المدن إذن؟ إن عمل الجغرافي أن يطالع سطح الأرض المتفارق المختلف بطبيعته من رقعة إلى أخرى، فيستشف منها ويتعرف فيها على كل وحدة تباينية ذات شخصية متميزة عمن سواها فيحدد معالمها lineaments ويحدد محتوياتها ومضمونها ويعلل مقومات تلك الشخصية. أي هي علم الأقاليم – علم الكورولوجيا Chorology. ودور جغرافي المدن في هذا أن يتقصى التباين الأرضي كما يأتي ويتحدد من ناحية المدن، أي مساهمة الحقيقة المدنية في إعطاء التباين الأرضي وتمييز الأقاليم. فهو يسعى وراء الشخصيات الإقليمية المدنية. وقد تكون المساحة التي ندرسها هي رقعة المدينة وحدها فنتعرف على الشخصيات المحلية داخلها؛ وقد تكون منطقة ضخمة تتعدد فيها المدن فتتعرف على أقاليم الشخصية أو الشخصيات المدنية داخلها كما

تستشف من أنماط وأنواع الشخصيات المحلية داخل كل مدينة فيها من ناحية ومن وضعها الخاص في أجزاء المنطقة المختلفة من ناحية أخرى، وهذا قد يأتي من جانب طبيعة علاقة المدينة بريفها المحيط أو من صورة وكثافة انتشار وتوزيع وتوقيع هذه المدن في الإقليم. فالشخصية الإقليمية كما تساهم في تحديدها وتشكيلها المدينة هي هدف جغرافيٌ المدن. فالمدينة بنوع تباينها وتمايزه الداخلي وبنوع تباينها وتمايزها في وضعيتها وأهميتها وعلاقاتها في الإقليم الذي توجد فيه، قد تكون مفتاحا لشخصية الإقليم، أو على الأقل هي عنوان جزئي عليها[1]. فالتركيب الداخلي والتباين المكاني داخل المدينة الإسلامية يختلف عنه في المدينة الأمريكية أو مدينة غرب أوربا[2]، وهو في مدينة العصور الوسطى يختلف عنه في المدينة المعاصرة. وهذا التباين المكاني المدني يمكن أن يتخذ في كل حالة أساسا criterion لاستقرا أقاليم جغرافية متمايزة. ومجموع المدن – مجتمعها consociation – في منطقة ما، كما يتألف من صورة أحجامه وأبعاده وعلاقاته.. إلخ يمثل أساسا متغايرا variable من منطقة لأخرى، أي عنصرا من عناصر الشخصية الإقليمية بحيث يمكن أن يتخذ مقياسا جزئيا لتقصي أقاليم جغرافية متمايزة. مثلا في تقديمه لمقال فيدال المشهور عن "الشخصية الجغرافية لفرنسا"، يضغط فلير على الفارق في صورة "مجتمع" المدن consociation بين فرنسا وإنجلترا كعنصر مفارق مميز للشخصية الإقليمية لكل منهما – الأولى بمركزية باريس الطاغية وندرة الأحجام الكبيرة وسيادة الأحجام المتواضعة، والثانية بتعدد المدن الضخمة رغم ضخامة لندن – هذا إلى جانب الفارق العام في درجة التمدين، ويتتبع هذا التفارق إلى التطور

---

(1) Aurousseau, Marcel, "The Geog. Study of Population Groups" Geog. Rev., April, 1923, p. 271.

(2) Sorre, p. 175.

الصناعي فالأساس الجغرافي والتاريخي للزراعة[1]... إلخ. ويمكننا أن نمثل بالفارق المماثل بين هولندة التجارية ذات العدد الأكبر من الأحجام الضخمة وبين بلجيكا الصناعية ذات العدد الأكبر من الأحجام الصغرى والمتوسطة، كانعكاس وصورة لفروق في الشخصية الإقليمية. فالتباين الإقليمي المدني يساهم في التباين الإقليمي العام وقد يعبر عن شخصية الإقليم ويترجم لها خيرا من عناصر أخرى. هو طابع cachet مادي ملموس لشخصية الإقليم وروح المكان Genius loci. وقد يكون التباين الإقليمي المدني ألصق بتحديد الأقاليم البشرية والحضارية cultural landscape، ولكنه كذلك مرآة وكشاف re- agent للنواحي الطبيعية أحيانا. قد تكون الأقاليم صماء والطبيعية خرساء أحيانا، ولكن تنطق خلال الإنسان وأعمال الإنسان. فجغرافية المدن باختصار هي التباين الأرضي المدني. هي "كورولوجية المدن urban chorology". هي رسم أقاليم المدن المتمايزة، أي التعرف على الشخصيات الإقليمية المدنية Personality، ولما كانت المدينة ظاهرة اصطناعية من صنع الحضارة، فأقاليم المدن هي في النهاية أقاليم حضارية أو أقاليم الحضارة المدنية Culture areas الأنثروبولوجي أو Cultural regions الجغرافي.

هل هذا التعريف يضمن للمادة استقلالها الخارجي ووحدتها الداخلية؟ وإلى أي حد يختلف عن التعريفين التوزيعي والإيكولوجي؟ وهل هو يلغي الحاجة إلى دراسة التوزيع؟ إن قلب التعريف الكورولوجي هو المنطقة المدنية ذات الشخصية المدنية المتفردة، وهذه كما تتركب من عناصر مميزة distinctive ذات مغزى ودلالة من وجهة نظر تفرد الشخصية والتباين. ولا مفر من أن تنحصر هذه العناصر إما في النمط pattern أي التوزيع، أو في العملية

---

(1) La Personalité géographgique de la France, with a preface by H, J. Fleure, Manch, * Lond., 1946, p. XIV.

process أي العلاقة الإيكولوجية. ولهذا تعتمد كورولوجية المدن على توزيع الظاهرات المدنية، وعلى إيكولوجية المدن في تفسير وتقييم هذه الظاهرات. فالتوزيع والعلاقة لُحْمَة الإقليم وسُدَاه warp & woof، ولكن اللحمة والسُّدَى ليست أكثر من مادة خام، ستشكل في صورة "وروح" جديدة – روح الإقليم المدني، الشخصية الإقليمية. فلا ندرس التوزيع في ذاته أو لذاته. وكذلك العلاقات. فكورولوجية المدن ليست توزيع الحقيقة المدنية ولا هي إيكولوجية المدن كما أنها ليست مجموعهما معا. فلسنا نركز على الظاهرة التوزيعية التي تملأ الإقليم أو العلاقة الإيكولوجية التي تسوده، ولكن نركز دائما على الإقليم، على شخصية الإقليم كما قد تتحدد بتلك الظاهرة أو العلاقة. ولهذا السبب فليس التوزيع أكثر من وسيلة ومادة خام ننتخب منها ما له مغزى ودلالة في تحديد هذه الشخصية، أي ما وصف بأنه "فعال جغرافيا geographically efficacious"[1]. وهذا يربط ربطا سببيا كفيلا بأن يوحد بين الظاهرات المتنافرة التي تمثلها هذه التوزيعات بحيث يضمن وحدة العلم الداخلية. وأما العلاقة الإيكولوجية – العملية – فليست هدفا وإنما وسيلة إلى تحديد الفعلية الجغرافية للتوزيع المعطى، فهي أساسا في انتخاب الظاهرة الجغرافية وتفسيرها، ولكنها ليست الحقيقة الجغرافية. وبينما قد تهتم إيكولوجية المدن بالعمليات في ذاتها كعلاقة الإنسان والإنسان أي بين المجموعات الاجتماعية، تهتم جغرافية المدن – في حدود اهتمامها الثانوي بالعمليات – بالعلاقة بين البيئة والإنسان[2]. ومن الملاحظات التي لها مغزاها أن الظاهرة الجغرافية التي نعرفها منذ جفرسون "بالمدينة الأولى Primate City"، يشير إليها اجتماع المدن في صيغة "عمليات": فيسميها السيادة والتركيز.. إلخ. يقول أريكسن[3]:

---

(1) West European City, p. 1.

(2) Le Lannou, Maurice, La Géog Humaine Paris. 1949. pp. 27 – 31.

(3) pp. 134 – 5.

"Theis is what mark Jefferson called "the law of the primate city" and to which contemporary ecologists have assigned the concept "dominance" with its subforms: concentration and centralization".

وبالمثل، بينما تنظر الجغرافيا إلى المدينة على أنها "شكل من السكنى" ينظر إليها الاجتماع على أنها "طريقة حياة". ويعبر برجل عن وجهة نظر واهتمام الاجتماعي كما تختلف عن الجغرافيا[1]:

.. Focused on man rather than on his visible artifacts, on social actions and social relationships rather than on spatial patterns, on nonmaterial culture rather than on physical objects, on groups rather than on areas, and on social techniques rather than on technology in a narrow sense."

ولهذا ينبغي ألا نستعير من إيكولوجية المدن بلا تمييز انتخابي وإعادة تشكيل تخدم وجهة نظر الحقيقة الجغرافية – الشخصية الإقليمية. وهذا يضمن للمادة استقلالها الخارجي وكيانها المستقل. فإيكولوجية المدن بالنسبة لجغرافي المدن هي كالمتيورولوجيا بالنسبة للجغرافية المناخية. ولكن للأسف قد حدث في الجغرافيا نقل حرفي مباشر لكثير من نتائج إيكولوجية المدن سبب تميعا في مادتها واضطرابا في منهجها وهدفها، وذلك لعدم وضوح المرمى التعريفي للمادة. وكما يقول دبنام:

"Students of cities are liable to be sociologists rather than geographers".[2].

---

(1) p ix.

(2) Debenham, Frank, The Use of Geog., Lond., 1950, p. 146.

هذا هو التعريف الكورولوجي لجغرافية المدن. ولكن هناك اختلافات مذهبية منهجية داخله منها ما يختص بمفهوم الإقليم ومنها ما يختص بمضمونه أي بأساس انتخاب الظاهرات. فهناك مدرستان: الأساسية مدرسة "الإقليم" بالمعنى المعروف السابق وهي تدرس كل ظاهرة في المدينة مادية وغير مادية لها دلالة تباينية وتمييزية في المكان. ومع ذلك يرى البعض أن التباين الأرضي قفص حديدي – "Procrustean bed" مؤلم لضيقه[1]. أما المدرسة الثانية فهي مدرسة "اللاندسكيب" – "اللاندسكيب البحت landscape Purists" كما يشير إليهم ديكنسون، والتي تفهم الجغرافيا على أنها علم الأشياء لا الإنسان، والإقليم على أنه الظاهرة المرئية الملموسة "tangible et visible"[2] بالحواس أي المادية فقط. فالمدينة – كما عند بسارجه Passarge – لاندسكيب مدني townscape – Stadtlandschaft. وهي من "أعمال الإنسان Works of man" أو من "الثوابت الحضارية Cultural immolilia" كما يعبر ليلي Leighley[3]. فهي تدرس كما ترى وتلمس – كما "تلاحظ": عناصرها ومظاهرها المادية فقط. وهذا الاتجاه التحديدي الصارم جاء تحت تأثير النزعة المادية في الجيوموروفولوجيا ويستهدف أصلا عدم انسياح الجغرافيا وتحقيق الملاحظة الموضوعية. ويمكن أن يلخص اقتراح جرانو Granö الموقف حين يقول: دراسة النواحي المادية للجغرافيان واللامادية للاجتماع. وهي قسمة سليمانية ضيزى تشبه اقتراحا قديما لأصحاب التعريف الجيوفيزيقي بتقسيم سطح الأرض للجغرافي وباطنها للجيولوجي، وتؤدي إلى نتائج خطيرة رفضها معظم

---

(1) Spirit & Purpose, pp. 143 – 4.

(2) Brunhes, Jean, "The Specific Characteristics & Complex Character of the Subject – Matter of Hum. Geog." Scot. Geog. Mag., June, 1913. pp. 304 ff.

(3) Leighley. John B., "Some Comments on Contemporary Geographies method," A. A. A. G. Sept., 1937, p 134.

الجغرافيين. فهي أولا تنصرف إلى الشكل form والهيئة physionomy، وتهمل الوظيفة function، ووظائف الأعضاء physiology، وبذلك تصبح سطحية ضحلة وصفية لا سببية، لأن الوظيفة هي الأصل والسبب، والشكل الفرع والنتيجة. فهي تدرس المباني الدينية لأنها مادية موجودة في لاندسكيب المدينة، ولكنها لا تدرس الأديان لأنها لا تُرَى. صحيح إن مدرسة اللاندسكيب البحت ليست وصفية تماما، بل هي تعليلية genetic إلى حد ما، على أساس افتراض أن الشكل مظهر خارجي ملموس للوظيفة[1]. ولكن كما يقول ديكنسون[2].

"function and form are not necessarily in harmony"

وفي المدن بالذات – كما يلاحظ فايبل Leo waibel – يصبح الشكل دليلا على الوظيفة مشكوكا في كفايته[3]. حقا إن جغرافي المدن المدرب جيدا ينبغي أن يستطيع أن يلاحظ الفرق في المظهر بين مدينة تجارية عامة وأخرى صناعية أساسا، ولكن يكون من الصعب جدا أن نقيس الفرق بالدرجة، حيث إن معظم المدن تجمع بين الوظيفتين. ثم إن كثيرا من المباني التي بنيت لأغراض – وظائف – معينة قد تغير وظيفتها دون شكلها الخارجي: كأن يتحول مخزن إلى مصنع أو العكس. وفي نيوإنجلند حول المضيفون حظائر سابقة barns إلى منازل دون تغيير ملموس في مظهرها الخارجي، بل والداخلي. ويعترف هارتسهورن أنه أنفق مرة ساعات طوالا يجوب شوارع ليون باحثا عن مصانع الحرير ليكتشف في النهاية أنه يصنع في مبان كالربع القديم tenement لا تختلف عن البيوت في شيء، "فهل كان له على هذا الأساس أن يقضي على

---

(1) Hartshorne, pp. 195 ff.

(2) "Landscape and Society" Scot, Geog. Mag., jan., 1939, p. 6.

(3) Hartshorne, p. 224.

الصناعة بأنها غير مهمة في جغرافية ليون؟" ولحسن الحظ أن اللاندسكيبيين يقولون ما لا يفعلون. فتحت تأثير مخططي المدن فيما يبدو، لا يحللون التركيب المكاني في المدينة في صيغة أشكال ولكن في صيغة وظائف[1]. فإذا كانت أشكال الحضارة مجرد تعبير عن الحضارة والأفكار الحضارية، فنحن بالتأكيد إنما نريد جغرافية الحضارة أولا أما أشكالها فتأتي بعد ذلك. وقد أصبحت كلمة وظيفة. التي لم تستعمل قبل مونييه في ١٩١٤ إلا صدفة وغرارًا، أصبحت من أشيع وأهم الكلمات في جغرافية المدن الآن[2]. على أن من الإنصاف أن دراسة الأشكال والأنماط في المدن خاصة – الخطة مثلا – قد تثرى من فهمنا لتطورها ونموها، ولو أنه قد يعترض مع برستون جيمس على أن هذا إنما يرجع ببساطة إلى أنه لا يمكن أن توجد مدينة بلا خطة![3] ولكن الإغراق في التركيز على الأنماط عملية تستهوي محبي الزخارف والشكليات ولكنها قد تكون خاوية جافة[4]، والمطلوب أنماط فعالة، أنماط وظيفية functioning patterns. يضاف إلى هذا أن التركيز على الشكل المرئي قَمِين بأن يحول جغرافي المدن إلى مؤرخ للفن والعمارة art historain، ويحولها هي إلى نوع من "طبوغرافية الفن Topography of Art" كما يري ليلي Leighley فيما يبدو. فنبدأ نرسم خريطة تفصيلية توضح طراز البناء في كل نقطة: هذا رومانسك، وهذا قوطي قديم أو حديث، وهذا رينيسانس أو باروك.. إلخ. وقد لا يكون لهذه العملية الشاقة الباهظة في النهاية مغزى سوى عنصر النمو التاريخي فيها والذي يمكن أن يحدد مباشرة بدون الطراز. وعلى أي حال فهي وظيفة ليس للجغرافي قِبَل بها، وإن حاولها فينبغي بقدر. وهناك خرائط كثيرة من هذا النوع أنشأها

---

(1) Id., pp. 224- 5.

(2) Chabot, p. 19.

(3) Hartshorne, id.

(4) Op cit.p.134.

جغرافيون ألمان خاصة. ولكن بصراحة من الصعب أن تجد فيها دلالة جغرافية ذات بالٍ. ولا تنتهي النزعة "الفنية" التي تنطوي عليها اللاندسكيبية عند هذا الحد: بل إن التمادي في الطرز والأشكال والأنماط قد ينزلق إلى "جماليات الإقليم Aesthetics of landscape"، إلى الوقع التأثيري impressionism للاندسكيب المدينة على نفس المشاهد – وربما على أذنه وأنفه كذلك! – كما يفعل جرانو... مثلا بسارجة في دراسة لمدريد – دراسة في اللاندسكيب البحت Reine Landschaft، فلنذكر! – لا ينسى أن يضمنها مشط السينوريتا المتخذ من درقة السلحفاة وإمالة غطاء الرأس mantilla بزاوية جذابة[1]! ويذكر سميلز – الذي لا تعرف عنه منشورات فلسفية لاندسكيبية – أن شخصية المدن الحضارية.

"is not only apparent to the eye in the visible scene, but also to nose and ear through distinctive smells and sounds[2].

ورغم أن هتنر Hettner يقبل "الجغرافيا الجمالية aesthetic geog" الموضوعية[3]. إلا أن الهامش بينها وبين "الجغرافيا التأثيرية" الشخصية ضيق زلق. وكثير من الرحالة والأدباء وغيرهم من "هواة المدن" يؤدي هذه الوظيفة لحسابه الخاص. وأخيرا، وأهم من ذلك، أن التركيز على الأنماط والشكل يستغرق الباحث عن العنصر الهندسي البحت في الموضوع – العلاقات المكانية – الموقع. فقد لوحظ على دراسات أصحاب اللاندسكيب البحت مثل بسارجه وكارول ساور C. O. Sauer وجرانو روعة وغنى في دراسة تفاصيل الأنماط مع ضعف شديد في دراسة الوضعية العامة والمواقع النسبية لها، وقد تضغط

---

(1) Hartshorne, p. 206.

(2) Geog. Of Towns, p. 69.

(3) Hartshorne, p. 219.

على الموضع بشدة وتهمل الموقع إهمالا – مع أن الجغرافيين ربما لم يتفقوا على شيء اتفاقهم مع بيرجر Bürger على أن الموقع هو أكثر عناصر الجغرافيا "جغرافية"[1]. وإذا أمكن للبعض أن يقلل من قيمة الموقع في الجغرافيا الطبيعية فهو أكثر من حيوي في جغرافية المدن بالذات. لكل هذا ليس من السهل أن نقصر التباين الأرضي على العناصر المادية المرئية في اللاندسكيب. وإذا أمكن للبعض أن يفعل هذا في بعض فروع الجغرافيا، فإنهم فشلوا – لحسن الحظ – في المدن: فكل أصحاب اللاندسكيب لا يملكون إلا التوزيع الدقيق للأقليات والقوميات والطبقات والرذيلة والديانات والتعليم.. إلخ في المدينة. والواقع أن اللاندسكيبيين كثيرا ما يبدون تناقضا بين النظرية والتطبيق، فلو كانوا منطقيين مع أنفسهم لنبذوا دراسة المدن من الجغرافيا أصلا على أساس أنها لا تحتل إلا مساحة تافهة في اللاندسكيب – والامتداد في المكان extensity اعتبار لاندسكيبي هام عندهم – ولكن ليس هناك أي مناقشة فلسفية يمكن أن تحمل أي جغرافي على تجاهل المدن! ومن الخير أن نقبل كل أساس تباييني مادي وغير مادي له مغزى معقول في تشخيص الإقليم المدني وتحديد شخصيته – أي العودة إلى الأساس الكورولوجي. على أن الأساس اللاندسكيبي قد لا يخلو من نفع في تنظيم معلوماتنا: فيمكن في الحقل أن نجعل ترتيب الدراسة تبدأ بالمرئيات المادية في اللاندسكيب وبعدها نتقصى العوامل غير المادية. ويزكي فنش Finch هذه الطريقة بالنسبة لدراسة المدن خاصة[2].

ثالثا – وظيفة جغرافية المدن

١ – حركة الجغرافية التطبيقية. هل لجغرافية المدن وظيفة؟ – وظيفة عملية غير الناحية النظرية؟ لا يمكن الإجابة عن هذا السؤال إلا في إطار فائدة

---

(1) Ibid., pp. 224 – 6.

(2) Hartshorne, p. 359.

الجغرافيا العامة. فأول ما ينبغي أن ندركه هو أن الجغرافيا في الفترة ما قبل الكلاسيكية Pre- Classical Period كانت –على بدائيتها – مادة نفعية Utilitarian: تصطنع "وتتعاطى" – ضمن أشياء أخر – لفائدتها في أمور الحكم والإدارة administration[1]. وفي الفترة المعاصرة أخذت الجغرافيا تخضع كما تكرر من قبل كثيرا في تاريخها، لفلسفة العلم السائدة، التي هي الآن مذهب الذرائع Pragmatism الذي يؤدي إلى الفكرة الاشتراكة التي تؤمن بالعلم في سبيل الحياة والمجتمع لا من أجل العلم فحسب. وكان التوجيه الإيكولوجي للجغرافيا مما ساعد على تحقيق ذلك، فهو على عَلاته صاحب فضل: فقد أكد العلاقة بين البيئة والإنسان، وأن الإقليم هو الإناء الذي يصب فيه المجتمع ولا مفر من أن يتشكل به بدرجة أو بأخرى. فاتجهت الجغرافيا إلى الميدان التطبيقي، أي اتجهت إلى أن تعنى بالمشاكل Problems[2] – مشاكل توزيع وتنظيم المجتمع ومرافقه ومصالحه في الإطار الإقليمي الذي يحتله. وبدأ كثير من الجغرافيين يبحث عن تبرير علمه في "الجغرافيا التطبيقية Applied Geog "[3]. وقد كان معنى الجغرافيا التطبيقية في جغرافية المدن هو دخول ميدان التخطيط الإقليمي وتخطيط المدن Regional & Town Planning. وإزاء هذا الاتجاه الجديد المتزايد وقفت المدرسة الجغرافية في معسكرين: النظريين والتطبيقيين – وكدنا نقول مع چان جوتمان الجيل القديم من الجغرافيين والجيل الجديد، إلا أن من الإنصاف أن كثيرا من شيوخ الجغرافيين يؤيد الاتجاه التطبيقي بقوة ويعده حركة تقدمية رشيدة. فكما يقول جوتمان "لقد نصح شيوخ المهنة في الجغرافيا الفرنسية أخيرا بتجنب الطموح التخطيطي في الدراسات

---

(1) Tatham, G., Geog. In the Ninteenth Century, in Taylor's Geog. In 20th C., p. 34.

(2) Hartshorne, p. 183.

(3) Spirit & Purpose, p 162.

الإقليمية. ولكن الجيل الناشئ لا يريد أن يتقبل مثل هذا النصح"[1]. هكذا نجد شابو يعلن باقتضاب أن "اهتمامات مخططي المدن Urbanistes تتعدى حدود الجغرافيا"[2]. ومثله يفعل سور الذي يصف النواحي النظرية لفن إنشاء المدن (تخطيط المدن) بأنها "ليست من شأن الجغرافي"[3]. ولكن من الناحية الأخرى نجد لحسن الحظ من شيوخ الجغرافيين من يوجه إلى جغرافية المدن التطبيقية. فيقول جريفث تيلور – وقد اشترك كجغرافي في اختيار وتخطيط مدينة كنبرا العاصمة الاتحادية لاستراليا: "الجغرافيا أساسا علم وصل وربط، وفي ميدان تخطيط المدن يحشد الجغرافي قواه مع المهندس والمعمار". ثم يضيف "ولو أنه في مسائل الموضع والنقل والعلاقة مع البيئة عامة، تمت مشاكل تخطيط المدن بنفس الدرجة إلى ميدان الجغرافي"[4]. كذلك يرى ردموز – براون أن المسح الإقليمي الذي يقوم به الجغرافي ينبغي أن يكون معاونا لمخطط المدن[5]. وأكثر من هذا حكم واعتراف وتزكية لاثنين من كبار الجغرافيين عرفا بالاعتدال – وولدردج وايست: "إن الجغرافي يطور حاليا أداة، من بين عدة أدوات، تفيد في مجابهة نطاق واسع من المشاكل السياسية والاجتماعية والاقتصادية. وقد يفضل البعض، وهم في ذلك على حق، أن يضغطوا على هذا الجانب فيرون تبرير الجغرافيا فيما تسهم به لفن السياسة بأوسع معانيه، وفي محاولات الإنسان التي لا تنتهي ليضبط بيئته الأرضية ضبطا واعيا. بل في الواقع قد ظهر في السنوات الأخيرة جغرافيا تطبيقية حقيقية في ميدان تخطيط المدن والريف"[6]. كذلك يرى

---

(1) Gottmann, "Regional Planning in France: A Review, Geog., Rev., April, 1958, p. 257.

(2) p. 93.

(3) p. 343.

(4) Urban Geog. Pp vii, 351.

(5) Rudmose Brown, R N., Principles of Economic Geog., Lond. 1946, p. 162.

(6) Spirit & Purpose, p. 162.

دبنام أن وزارات تخطيط المدن والأقاليم مكان طبيعي للجغرافي[1]. أما كتاب ديكنسون .City Region ets فكله بمثابة دعوة ضخمة على مشاركة الجغرافيا في تخطيط المدن والأقاليم ويؤكد نفس الدعوى في West European City حيث يقول:

"... the trained geographer has an equipment and a technique which can be applied to the examination of particular problems of social and physical planning[2].

كذلك يقول تريكار عن الناحية العملية في المدينة:

"Le geographe ne peut s'en désinteresser et il doit se mêler a la foule des architectes, des maçons, des uribanistes, des terrassiers, des administrateurs, des charpentiers de fer et de bois pour aider à la construction des villes nouvelles.'[3].

بل أكثر من هذا – أو أبعد – ظهرت الدعوة إلى الجغرافيا التطبيقية في المدن منذ أول الفترة التكوينية: فتعلن مجلة Geog. Teacher في سنة ١٩١٧:

"Town and Country planning might and indeed should become, Applied Geography.!" [4].

هكذا أصبحت الجغرافيا التطبيقية الهدف النهائي للمادة حتى أوصى المؤتمر الجغرافي الدولي الأخير بإقامة لجنة "للجيومورفولوجيا التطبيقية"، وحتى بدأت تتبلور نواة مما يسميه الأستاذ لنتون "بجغرافية الموارد.

---

(1) Op. cit,, p. 197.

(2) p. 1.

(3) P. 2.

(4) Vol. IX, 1917 – 8, p. 109.

Resources Geog" تمثل بؤرة مطلوبة مباشرة في التخطيط والإدارة[1]. ومن قبل في ١٩٥٢ أقام الاتحاد الدولي الجغرافي Intern. Geog. Union لجنة للتخطيط الإقليمي Commission for the Study of Regional Planning وضعت كثيرا من التقارير الهامة[2]. هكذا أصبحت جغرافية المدن التطبيقية حقيقة واقعة، وإن تكن بلا شك في أولى مراحلها. ولا ننسى أن الاتجاه التطبيقي له سنده التاريخي فهو عود على بدء لنظرة أولية في الفترة السابقة للكلاسيكية. والمشكلة أولا وأخيرا هي: هل الجغرافيا مجرد علم منور أم هي علم مفيد أي نظري فقط أم تطبيقي كذلك؟ هل هي علم وصاف أم علم كشاف poineer؟ هل تتنبأ وترسم المستقبل فتسبق الحوداث – وتخطيط المدن، أم تنتظر الحوادث حتى تقع – والمدينة حتى تبنى – فتجري وراءها كالتابع لتصفها؟ كما يفهم من بيير جورج، لا مفر للجغرافيا من أن تكتفي بالوصف بالنسبة للمدن القديمة القائمة، ويكون علم هندسة تخطيط المدن سابقا على الجغرافيا؛ أما بالنسبة لإعادة بناء مدينة قائمة أو إنشاء مدينة جديدة من لا شيء فهنا تختلط هندسة تخطيط المدن وجغرافية المدن.

"L' urbanisme est en avance sur la géographie. Il ne se confond avec elle que dans le cas de la contruction ou de la reconstruction de villes ou d'ensembles neufs ex nihilo".[3].

٢ – تطور الحركة. وإذا كان تيار جغرافية المدن التطبيقية لم يجمع قواه إلا أخيرا، فإن دلائله وإرهاصاته بدأت منذ فترة طويلة. فمن الواضح أن دراسة ديمانجيون لبيكاردي ١٩٠٥ لم تكن تقصد مجرد الوصف فقط، بل حاولت

---

(1) Linton, David L, "Geog. * The Socilal Revolution & Geog Jan, 1957, p. 21.

(2) Gottmann.

(3) La Ville, p 23.

اقتراح التحسينات وتفادي أخطاء الماضي[1]. على أن الدفعة الأولى جاءت في نهاية القرن الماضي وبداية الحاضر في صورة حركة "الإقليمية Regionalism " التي ولدت في فرنسا أولا كحركة أدبية عاطفية عند الفيلبريجبست Félivrigistes كاحتجاج على ضياع التقاليد الفولكلورية الإقليمية إزاء طغيان وتنميط باريس، ثم تحولت إلى حركة إدارية وسياسية ضد اختلال التوازن في الثورة والمواهب والنفوذ بين مركزية العاصمة وضآلة الأقاليم والعواصم الإقليمية[2]. وقد تبنى "الريجيونالزم" كثير من الفلاسفة وعلماء الاجتماع والسياسة أمثال لويس ممفورد وأودم Odum وكول G. D. H. Cole، ولكن النصيب الأوفر منها الآن هو للجغرافيين. ثم جاءت الدفعة الثانية – التي ترتبط مذهبيا بفلسفة وحركة الريجيونالزم – منذ الحرب الأولى مع حركة "المسح الإقليمي Regional Survey" القوية في انجلترا على يد باتريك جديس Geddes تحت تأثير تعاليم لي بلي Le Play البيئية عن العلاقة بين "المكان والعمل والسكان Place- Folk – Work". فقد أصر جديس – الذي اعتبر جغرافيا – في حركته الداوية على أن لابد من مسح جغرافي كامل لإقليم المدينة قبل أن يمكن أدنى تخطيط لها، فليس هناك تخطيط مدني civic planning بلا تخطيط إقليمي regional planning[3]. وقد شارك في هذه الدعوة جماعة Le Play House من علماء الاجتماع مثال فيكتور برانفورد Branford[4]. ومن المعماريين المخططين أمثال أبركرمبي الذي يعد المسح الإقليمي جزءً من

---

(1) Gottmann, p. 261.

(2) Morgan. F W, "Three Aspects of Regional Consciousness", soc. Rev., Jan., 1939, pp. 68 ff. * Mumford, Lweis, "Theory & Practice of Regionalism". Soc, Rev., April, 1928, p. 13.

(3) Auzelle, Robert, Technique de l'Urbanisme, Coll. Que Sais- je? Paris, 1953, p. 11.

(4) Branford, V., "Life- Doctrines in Conflict", Soc. Rev., jan., 1923, pp. 6 – 7.

"الجغرافيا الكبرى .The Greater Geog"، وأن المسح يسبق التخطيط[1]. Urbanisme في أثناء نشأته وتكوينه أفاد من الجغرافيا وأدرك علاقته الوثيقة بها كما فعل مارسيل پويت Pöete أول أساطين تدريس التخطيط في فرنسا[2] وقد عاصر حركة المسح الإقليمي ظهور عمل ريادي سابق لأوانه في جغرافية التخطيط هو كتاب فوست عن أقاليم انجلترا Provinces England الذي كان أول محاولة بناءة لإعادة التخطيط الإقليمي والإداري على أساس المدن العواصم الطبيعية وأقاليمها التاريخية الوظيفية – أي أول محاولة في الريجيونالزم. وفي نفس الوقت كان فلير ينادي: "دعنا ندرس الحياة إقليميا دعنا نرى المدينة كبؤرة للتعبير الروحي. دعنا نحاول أن نخطط، لا لمجرد أن نواجه مشاكل التزاحم. وإنما بطريقة ما توفر وسائل صون كل ما له قيمة حيوية في التقاليد الموروثة للمدينة"[3]. ومن الضروري أن نلاحظ قيمة وفضل فكرة الإقليم الجغرافي الطبيعي major natural regions التي ظهرت معاصرة في التوجيه إلى حركة الريجيونالزم والتخطيط الإقليمي.

بعد هذا اشتد الاتجاه نحو جوانب جغرافية المدن التطبيقية من تخطيط مدن وتخطيط إقليمي، وتعددت أسماء الجغرافيين فيها: إيفاتيلور Eva G. R. Taylor, وجلبرت وديكنسون، وسميلز، وقد جاءت الحرب الأخيرة حاسمة في تأكيد هذا الاتجاه بعد تدمير كثير من المدن وتداعي كثير من أقاليمها. فلم تعد الدراسات المدنية التطبيقية بدعا، بل انتشرت كروتين جغرافي. ففي فرنسا، التي لاقت فيها حركة التخطيط الإقليمي وقتا عصيبا نتيجة لعنف مركزية العاصمة

---

(1) Abercrombie, p., Town & Country Planning. Home Univ. Lib., Lond., 1933, pp. 136 – 7.

(2) Bardent, Gaston, L' Urbanisme, Coll. Que Sais je? 1947, pp. 24- 7.

(3) Quoted in Fagg. C. C. & Hutchings, G. E., Intro. To Regional Surveying. Cambridge, 1930, p. 7.

وتوقف السكان ديموغرافيا، شهدت فترة ما بعد الحرب فيضا من الاهتمام والكتابة في التخطيط الإقليمي Aménagement du territoire ou d'écpace, Planification régionale فدعا فيليبونو Michel Philipponneau في مقال يقرأ من عنوانه، La Géographie: Sciénce Appliquée، إلى تطبيق الجغرافيا على التخطيط وأصر فرنسوا جاي Gay على الحاجة إلى التخطيط بالأقاليم، وبالمثل جان جوتمان، وقد أنشئت مناهج ودراسات في "الجغرافيا التطبيقية" وفي التخطيط الإقليمي في كثير من الجامعات الفرنسية إما في أقسام الجغرافيا أو مدارس العلوم السياسية[1]. أما في انجلترا فقد تكاثر عدد المهتمين بجغرافية المدن التطبيقية، ولأول مرة تعلن الحكومة في الصحف عن الحاجة إلى جغرافيين للمساهمة في مشاكل استغلال الأرض Land Use، وأصبح في وزارة الحكم المحلي والإسكان Local Govt. & housing عدد كبير من الجغرافيين المحترفين يعملون جنبا لجنب مع "أساطين" التخطيط القدامى: ثالوث المهندس والمعمار والمساح. كذلك أنشئت مناهج ودراسات في تخطيط المدن في كثير من الجامعات والمعاهد مثل درم ومنشستر وليفربول ولندن، وبعضها في كليات الفنون كما في أدنبره وليدز ونوتنجهام وجلاسجو وغيرها. وقد قضت اللجنة الحكومية المشكلة في ١٩٥٠ لتحديد مؤهلات المخططين بأن المخطط ينبغي أن يبدأ بفكرة واضحة تماما عن الأهداف الاقتصادية والاجتماعية للتخطيط، وأن لمن ليس مهندسا أو معمارا أو مساحا كالجغرافي والاقتصادي والاجتماعي أن يمارس التخطيط بعد دراسة عليا له[2]. أما في ألمانيا فقد دخلت حركة الباحثين في المكان raumforscher بما

---

(1) Gottmann, pp. 257 – 261.

(2) Jackson, J. N., "The Place of Geog. In Town & Country Planning," Geog. Jan., 1958, pp. 40 – 2.

فيها الجغرافي ميدان التخطيط: Städtebau، والأقاليم Raumordnung، Ramplannung[1]. أما في الاتحاد السوفيتي فقد أصبحت الجغرافيا عنصرا مشتركا في التخطيط بكل نواحيه في "هيئة تخطيط الدولة Gosplan[2]".

٣ – أسباب الحركة. هكذا نرى تيار الجغرافيا التطبيقية عامة وجغرافية المدن التطبيقية خاصة، يزداد بسرعة وقوة باطراد. ولا شك أن في هذا الاتجاه رد فعل لحالة من السخط وعدم الرضا بين الجغرافيين في الفترة الأخيرة، وذلك بسبب الوضع العلمي للمادة. فقد كان واضحا أن الجغرافي على ضخامة – بل فداحة! – معلوماته لا يجد له مكانا في الحياة العملية خارج الناحية الأكاديمية، بينما ينجح المتخصصون الأصوليون بمادة أقل غالبا، ووجهة نظر أضيق على التأكيد. ومن الناحية الأخرى كان واضحا أن كل نواحي الحياة العملية تتجه بلا شك إلى أن تتشكل وتستقطب في إطار إقليمي: فالتخطيط القومي لا يلبث أن يتحلل إلى عوامله الأولية وهي التخطيط الإقليمي، وتخطيط المدن لا يلبث أن يخرج عن النطاق المحلي البحت ليستقر في إطار التخطيط الإقليمي. وقد رأينا كيف يتجه الاقتصاد والاجتماع في آخر مرحلة من تطورهما إلى الإطار الإقليمي. أي أن كل عمليات تنظيم المجتمع وتنضيده إنما تتم بالضرورة وفي النهاية في الإطار المكاني الإقليمي الذي يعد الجغرافي أخبر الناس به. ويلخص ستامب الموقف فيقول: إن كل تخطيط طبيعي physical planning لابد بالضرورة أن يبدأ من الوضع الحالي؛ فسواء كان القرار النهائي في الآخر أن نزيل الوضع أو نعدله أو ننميه أو نعيد خلقه فلابد أولا من أن نعرف ونفهم الوضع القائم. فالخطوة الأولى هي المسح، وليس أقدر لها من الجغرافي. ويجب

---

(1) Lösch, p. 349.

(2) Howe, G. Melvyn. "Geog. in the Soviet Universities." Geog. Jour. March 1958. pp 80 – 4.

ألا نلوم المسح على أنه تصميم على بقاء الوضع الراهن status quo، أو على أنه بالضرورة يعني تغييره. فلنميز بين المسح والسياسة التي ستتبع بعده. ولكن بعد المسح، هل يترك الجغرافي نتائجه لغيره يطبقها على الشئون والمشاكل العملية أم يتولاها هو؟ هل للجغرافي أن يلعب دورا في تخطيط المدن والأقاليم وهناك مخططون محترفون؟ يرد لنا على هذا خبير تخطيط محايد غير جغرافي هو اللورد سكوت Scott الذي أشرف على تقرير سكوت عن تخطيط الموارد والأقاليم في بريطانيا:

"Town Planning is the art of which geography is the science"[1].

فمن درس الوضع الراهن تماما هو الأصلح لتخطيط مستقبله. وكثير من قواعد ومبادئ المخططين المهندسين ليست إلا استباقا وضبطا لعملية طبيعية تحدث تلقائيا ويعرفها المسح الجغرافي جيدا. فمثلا ما هي المنطَقَة Zonning – أهم مبادئ المخطط؟ أليست هي المنطقة الطبيعية Natural Area "مصنوعة" لا مطبوعة؟ إن مبدأ المنطقة Zoning – وكل التخطيط – ليس أكثر من توجيه وترشيد وضبط لظاهرة تلقائية. يؤيد رأينا هذا ما يقوله برجل من أن "الاتجاه الحاضر في المنطقة يتبع عموما مزيجا من نمط برجس وهويت Hoyt"[2] كذلك يقول وولدردج: إن اللاندسكيب الحضاري لم يخطط في ماضيه الألفي الطويل تخطيطا واعيا، ولكنه ثمرة تاريخ طويل من التجربة والخطأ، ولكن العملية لا تختلف في جوهرها عن تخطيط المخطط الحديث إلا في السرعة والوعي، وإن كلا من تخطيط الريف والمدن هو لذلك "جغرافيا تطبيقية":

---

(1) Stamp, L. Dudley, Applied Geog., in Lond. Essays in Geog, ed. Stamp & Wooldridge, pp. 11 – 2.

(2) p. 460.

"Town and rural planning are both applied geography.." [1].

لهذا كله لم يكن غريبا أن الجيل الأصغر من الجغرافيين قد نمى لنفسه فيما يبدو ذوقا للحياة غير الأكاديمية – حياة الموظف التطبيقي غالبا، لا البيروقراطي[٢].

ولكن لابد أن نتساءل بعد هذا عن السبب في أن جغرافية المدن كانت من أسرع فروع إلمامه نسبيا إلى الميدان التطبيقي رغم أنها من أحدثها تخصصا.

لا شك أن من العوامل الهامة تزايد الدور الهائل الذي تلعبه المدن وانتشارها الكاسح في "عصر المدن" – ولنذكر أن كل الجغرافيين في العالم سكان مدن!.. ثم هناك التدمير الذي لحق كثيرا من المدن في الحرب الأخيرة والحاجة إلى إعادة مسحها وتخطيطها. ولكن جزءً من السبب على الأقل يرجع إلى أن الجغرافي عامة يتعامل مع أقاليم ضخمة كبرى Macro – regions أكبر من نطاق التخطيط وأبعاد الضبط البشري، أقاليم لا يمكن أن يراها ككل – دعك من أن يخبرها شخصيا. ولنتذكر تشبيه برستون جيمس البليغ: "كجرثومة تسعى على صفحة صورة في جريدة.."! [٣]. أما في جغرافية المدن فربما كانت وحدة الإقليم أصغر وأكثر تناسبا مع المقياس البشري، يمكن تداولها والتعرف عليها في حدود التصور البشري.

٥ – النظرة إلى الجغرافيا التطبيقية. ولكن كيف قوبل الجغرافي في ميدان التخطيط؟ لازال المخططون "الكلاسيكيون" ينظرون أحيانا إلى زملائهم الجدد من الاجتماعيين كالجغرافيين بنوع على الأقل من الشك، وقد يشيرون إليهم

---

(1) Wooldridge, S. W., "Town and Rural Planning," Geog., June, 1938, pp. qoff.

(2) Rose, John K., Geog. In Practice in the Federal Government, Washington, in Taylor's Geog. In 20 th C., p. 572.

(3) James, Preston, "Terminology of Regional Description," A. A. A. G., vol. 24, 1934, p. 84.

بكلمات مثل back- room boy أو research wallah أو geohrapher – planner – ليس بالضرورة كتحقير ولكنها على العموم لا تدل على التقدير وهم لا زالوا يعتبرون أنفسهم "المخططين الحقيقيين"، وما زالت شكوكهم في جدوى الجغرافيا[1]. وكما يقول أريكسن:

"In fact olly gradually is recongnition being given to such "laymen" as political scientists, sociologists, geographers and public relations men in local planning administration"[2].

ويلاحظ حتى بعد دخول الجغرافي في مكاتب التخطيط أنه في الغالب يعمل تحت اسم آخر غير صفة الجغرافي[3]. ولا شك أن هذه النظرة من ناحية ثالوث التخطيط القديم ترجع إلى أن الجغرافيين يغزون ميدانا لا زال يعد بالتقليد التاريخي امتيازا خاصا لهم، وهي نظرة قد تبدو طبيعية من حيث إن تشريعات التخطيط في القرن الماضي وأوائل القرن الحالي كانت قاصرة تماما على تحسين الظروف الصحية والسكنية داخل المدن، وكذلك لأن المركز والمغزى الحالي للتخطيط في الحياة القومية يرجع بلا شك إلى جهود وعمل هذه الفنون الثلاثة الأولية. ولكن الوضع قد تغير تماما، وأصبحت هذه النظرة لا تتفق مع الواقع[4]. فلم يعد التخطيط عملية ترقيعية ضيقة الأفق تتم بعد المأساة، ولم يعد التخطيط طبيعيا بحتا فحسب physical planning، بل أصبح المسح الإقليمي الكامل بجانبيه من تخطيط طبيعي وبشري social planning فرض قانونيا، كما في انجلترا مثلا، على المخطط، واتسع أفق التخطيط حتى أصبح الإطار

---

(1) Jackson, p. 40.

(2) p. 438.

(3) Rose, pp. 569, 573.

(4) Jackson, id,

الإقليمي على الأقل هو الوحدة الصغرى التي يمكن أن ينظر إليه منها. ولم تعد المدينة ينظر إليها أو تعالج كاملة مستقلة في ذاتها، بل إن كل المدن في الإقليم تؤثر على كيان بعضها البعض من ناحية وتتفاعل مع الإقليم نفسه من ناحية أخرى كمجتمع الأشجار في الغابة urban consociation. فلم يعد من الممكن عزل مدينة أو جزء من مدينة لأغراض التخطيط كما لو تحت ناقوس زجاجي مفرغ – كما كان يفعل المهندس الإخصائي في الماضي[١]. وأي تجاهل لهذا يؤدي إلى تخطيط خطأ ضار بالمدينة والريف على السواء. ويكفي للدلالة على هذا أن الخطط التي وضعها المخططون المهندسون لنمو المدن في نصف مناطق بريطانيا حتى ١٩٣٧ فقط كانت قد عينت من الأرض ما يكفي لزيادة نحو ٣٠٠ مليون نسمة (!!) في وقت كان السكان فيه قد بلغوا التوقف تقريبا[٢]... والخلاصة أنه لا يمكن أن نخطط لمدينة خارج إطار الإقليم وللإقليم خارج إطار الدولة. ولهذا دخل التخطيط لأول مرة في دور التخطيط الشامل لا الجزئي[٣]. وإذا كان نشاط المهندس قد امتد أخيرا إلى المسح الإقليمي الذي يسبق التخطيط الطبيعي فما هذا إلا لضرورة ظرفية، ولكن أحدا لم يدع أنها من صلاحياته الموضوعية[٤]. وإذا كان على المهندس أن يدرس عددا من العلوم الاجتماعية وجغرافية المدن قبل أن يصبح مخطط مدن، فهذا اعتراف بأن الجانب الفني الهندسي البحت لا يكفي وأنه من الجانب البشري الإقليمي العام قد أصبحا صنوان متكاملين لا تخطيط بواحد منهما دون الآخر.

بل قد يمكن القول بأن الفرد المخطط الكامل غير موجود أو ممكن، وأن

---

(1) Willatts, E, C, Some Principles of Land – Use Planning, in Lond. Essays in Geog., pp. 296 – 7.

(2) Ibid., p. 290.

(3) Ibid, p. 302.

(4) Jackson.

المخطط المثالي الكامل مجموعة لا فرد – وقد اقترب ستامب من هذا الانتهاء كثيرا[١]، وكذلك دبنام[٢]. والسبب في هذا الوضع أن الحياة الواقعية العملية لا "تحدث" بحسب التخصص. ومن ثم فليس التخطيط حكرا للمهندس أو المعمار أو المساح. لكن من الناحية الأخرى لاشك أنه ليس ثمة جغرافي يدعي أنه يمكن أن يقدم كل الحل لمشكلة التخطيط الطبيعي[٣]، أو يود أن ينازع المهندس – المخطط أو يشاركه مهارته الفنية في تصميم خطة منزل أو وحدة مصنع ولكن على الجغرافي "أن يناضل من أجل الاعتراف به مع أي مساح أو مهندس حصل على صف التخطيط ويظن نفسه قادرا إما على القيام بمسح عينات أو على تفسير المعلومات الإحصائية المعقدة عن السكان أو الصناعة... فالمسح ليس، كما يريدنا كثير من المخططين أن نعتقد، مجرد حدس أو إلهام أو فهم عام أو شغل يلقى به إلى (صغار المكتب)". بل هو مبني على أساس الخبرة المتراكمة والمعرفة[٤]. وكل من يطلع على عناصر المسح الإقليمي كما يضعها ويحددها المخطط المهندس[٥]. لابد يدرك على التو أنها العمل اليومي – الخبز اليومي! – للجغرافي، ولابد أن يتفق مع جاكسون على أن المسح التفصيلي للماضي والحاضر والتنبؤ بالمستقبل هو مجال الجغرافي أكثر من أي شيء آخر، وأنه يمكن للجغرافي – بل عليه – أن يسهم في هذا الجانب من التخطيط[٦]. وقد بدأ بعض المهندسين المخططين يعترف بهذا ولو في تحفظ. فيقول روبير أوزل الأستاذ بمعهد التخطيط بجامعة باريس: إن التخطيط السليم يجب أن يعتمد على

---

(1) Applied Geog. Lond, Essays, p 17.

(2) op. cit., 197.

(3) Stamp, idem., p. 16.

(4) Jackson, p 43.

(5) Abercrombie, pp. 133 – 5 & Fagg & Hutchings, pp 117 – 123.

(6) p. 39

معرفة دقيقة جدا بالإنسان وحاجاته المتعددة وببيئته، وهي معرفة يساهم فيها عدد كبير من العلوم: كالاجتماع والتاريخ والجغرافيا والسكان.. إلخ. والمخطط مجمع لكل هذه الأبحاث وهو "قائد الأوركسترا" فيها الذي ينسق بينها[1].

ونحن في مصر في حاجة ماسة إلى إدراك حقيقة تخطيط المدن والأقاليم وأنه لا يمكن أن يتم على صواب إلا بالتعاون الكامل بين المهندس من ناحية والجغرافي والاجتماعي والاقتصادي من ناحية في صورة هيئة مشتركة، بل ينبغي أن يكون لكل مدينة مكتب تخطيطها المشترك شاملا "جغرافي المدينة"، الذي يكون من واجبه عمل مسح جغرافي كامل للمدينة وإقليمها كنقطة البدء في أي تخطيط رشيد. ولحسن الحظ أن هناك من أساتذة التخطيط الهندسي من يتفق معنا في هذا بل وسبق أن دعي إليه: "أعتقد أن مصر في أشد الحاجة إلى خبراء وفنيين ملمين بحالتها الجغرافية والطبيعية والجيولوجية وكذلك حالتها الاجتماعية والصحية والثقافية والاقتصادية والصناعية والزراعية.. ومصر كذلك في حاجة لمن يقوم بدراسة وتنفيذ مشروعاتها العمرانية الضخمة، أعني أنها في حاجة إلى جيل من المخططين Planners نشأوا في مصر وأحسوا باحتياجاتها. وعلم تخطيط الأقاليم والمدن والقرى علم جامع للموضوعات السابقة الذكر". والواقع "يحتم علينا أن ننشئ لهذا العلم معهدا.. على أن يلتحق بهذا المعهد خريجو أقسام العمارة أو الاقتصاد أو الجغرافيا أو الاجتماع من الجامعات ويقضي الطالب بهذا المعهد عامين دراسيين يحصل بعدهما على الماجستير في التخطيط.."[2].

٥ – مغزى الحركة التطبيقية. هذا هو الموقف التطبيقي لجغرافية المدن. ولا شك أنه يمثل نسبة قليلة حتى الآن من الجغرافيين. "وليس يكفي الجغرافيين أن يظلوا بعيدين وينتقدون حماقات المخططين من منبر أكاديمي أو من سلم عربة

---

(1) Auzelle, pp. 7, 10, 16.

(٢) عبد الباقي إبراهيم، مدرس العمارة وتخطيط المدن بهندسة عين شمس. الأهرام. يونيو ١٩٥٦.

رحلات أثناء أسبوع ملتهب في الحقل[١]". فالمجال التطبيقي يحتاج إلى تدريب حقيقي وإعادة تقييم للدراسة النظرية. فقد دلت تجربة الجغرافيين الأمريكيين في الإدارة والحكم والتخطيط على أنه وإن كان التخصص الإقليمي في الدراسة مطلوبا في حالات كثيرة ، إلا أن التخصص الأصولي يبدو أهم وأجدى حين التطبيق. إذ أن رجال الإدارة كثيرا ما وجدوا الجغرافي "واسع المعرفة لدرجة أنه ليس مرجعا في أي شيء"[٢]. ولا شك أن التخصص الإقليمي مطلوب في أعمال تطبيقية كثيرة، ولكن في هذه الحال لابد من التخصص التام فيها على مستوى الجغرافيا الميكرسكوبية microgeography. على أن حظ الجغرافي الأصولي يبدو على العموم أسعد نوعا ما. ولكن هذا يعني بدوره التخصص الحقيقي في خط أصولي إلى جانب السيطرة على كثير من الموضوعات المشتركة بينه وبين العلم الأصولي المقابل. وعلى أي الحالين لابد من استكمال التخصص الجغرافي ببعض الدراسات الأصولية غير الجغرافية التي ترتبط به. وفي الحالين تبدو الجغرافيا العملية، وجغرافية الغيط .field geog – وفي قلبها المساحة الأولية والخرائط – ضرورة شرطية للجغرافيا التطبيقية[٣]. وقد يلاحظ تعارض بين الفلسفة الأساسية للجغرافيا النظرية التي تصر على التكامل أكثر من التخصص، وبين الضرورة العملية للتخصص في الجغرافيا التطبيقية، ولكن قد يكون هذا التناقض ظاهريا أكثر مما نظن.

رابعا – تصنيف جغرافية المدن

١ – أين تقع جغرافية المدن في العائلة الجغرافية؟ صنف باروز الجغرافيا البشرية إلى اقتصادية، سياسية، اجتماعية، وتاريخية[٤]. ولكن هناك إجماعا على

---

(1) Jackson, p. 39,

(2) Rose, pp, p. 584 – 6.

(3) Id., pp. 575 – 586.

(4) Barrows, loc. Cit, p. 7.

أن الأخيرة إنما تقابل بالجغرافيا عامة[١]. وصنف روكسبي البشري إلى جنسية، اجتماعية، اقتصادية، وسياسية[٢]. ولكن هناك اتفاقا على أن الأولى – إن كان لابد[٣]. فهي جزء من الجغرافيا الحيوية. وقد حدث في الفترة الحديثة تحرك في الاهتمام نوعا داخل البشرية من الاقتصادية إلى الاجتماعية[٤]. وقد قبلت الأغلبية الجغرافيا الاجتماعية وإن لم يتحدد نطاقها وظل موضوع مناقشات، ولكنها كانت تشمل في الجغرافيا بصورة عامة ما يقابل علم الاجتماع، أي دراسة السكان والمسكن من ريفي ومدني Rural & Urban Habitat، والنظم الاجتماعية أو البيئات[٥]. ولكن في السنوات الأخيرة ظهرت اتجاهات جديدة فهارتسهورن[٦]. يشير إليها على أنها "what might termed sociological geography" وأن إضافتها الممكنة للجغرافيا لابد أن تكون محدودة إلى حد بعيد. وأصبح البعض لا يرى مع وجود الاقتصادية والسياسية أي مجال وبالتالي مبرر لجغرافيا اجتماعية[٧]. ومن ناحية أخرى أوجد الاتجاه اللاندسكيبي المادي جغرافية جديدة هي "الجغرافية الحضارية، Cultural Geog" تختص "بأعمال الإنسان" الحضارية في اللاندسكيب، "بالغطاء الحضاري Cluturosphere"، أي خاصة المسكن من ريفي ومدني[٨]. ثم جاء فتزجرالد فأعلن أنه يرى إحلال كلمة الجغرافيا البشرية بالجغرافيا الاجتماعية على أساس لغوي ومنهجي معا[٩]. ولم

---

(1) Hartshorne, p 397.

(2) Roxby, P. M., "Scope & Aims of Hum. Geog. "Scot. Geog, Mag., 46, 1930. pp. 2276 ff.

(3) Houston, J. M, A Social Geog. Of Europe, Lond., 1953, p. 26, 38.

(4) Huntington, E., A. A. A. G., col. XXII, 1932.

(5) Houston, p. 27.

(6) p. 397, 405.

(7) Debenham, p. 176.

(8) Sauor, Carl O, Morphology of landscape, Berkeley, 1938, pp. 45 – 6.

(9) Fitzgerald, W., Geog & Its Components, Geog. Jour, May – June 1946, pp. 272 – 3.

يكن هذا جديدا تماما، فإن فاللو كان أول من استعمل كلمة جغرافيا اجتماعية في عام ١٩٠٨ كمرادف للجغرافيا البشرية[١]. وذلك بعد أن بدأها ديمولان لأول مرة بمعناها الضيق الصحيح في أواخر القرن الماضي[٢]. وقبل هذا التعديل وولدروج وإيست لأنه وإن كان لا بأس من أن توجد جغرافيا سوسيولوجية وأن من الممكن أن نتصور أن مثل هذا الفرع قد ينمو، إلا أن "من الصعب أن نرى لها ميدانا إذ ادعت كل من الجغرافية الاقتصادية والسياسية ميدانها الخاص." [٣]. وقد رفض البعض التعديل مثل جلبرت وستيل[٤] وواطسون[٥] وهوستن على أنه ليس سليما كما يسبب اختلاطا كبيرا وبلبلة. بل هناك أخيرا محاولة لإحياء الجغرافيا الاجتماعية ويحتفظ أصحابها لها بجغرافية السكان وجغرافية المدن وجغرافية الريف. Rural Geog. وعلى العموم فالثابت أن جغرافية المدن تطورت لطبيعتها الخاصة على خط واضح واستقلت عن جغرافية السكان أو المسكن التي كان البعض يدغمها فيها بصورة عامة على أساس أن المدن "سكان"، وحتى الآن لا يمكن دراسة سكان منطقة إلا بإدخال القطاع المدني فيها، ولكن لم يعد كافيا أن تدرس المدينة كمجرد سكان: لقد شبت المدن عن وصاية السكان، وكذلك عن المسكن habitat: فمن العسف أن نضغط دراسة المدن إلى ما يشبه دراسة المسكن الريفي. وبينما لا زال البعض يشك في جزء كبير من دراسة المسكن وأنماطه على أنها مجرد آخر صيحة وبدعة في الجغرافيا – the

(1) Vallaux, Camille, Géog, Sociàle: La Mer, 1908.

(2) Demolins, Eamond, Comment la Route Crée le Type Social. Essai de Géog. Social, Paris.

(3) Spirit & Purpose, p. 142.

(4) Gilbert, E. W, & Steel, R. W., "Social Geog. & Ito Place in Colonial Studies," Geog. Jour., 1945. pp. 118- 31.

(5) Op. cit., pp. 483- 4.

latest fad in geography[1]. - أصبحت المدن فرعا قائما بذاته في الجغرافيا البشرية:

"There has, indeed grown up a live "urban geography," an important and indeed indispensable sub-division of social geography [= human geog.], Wich bids fair to provide us with some of the generic concepts which are so deficient in the earlier "human geography"[2].

وبحكم طبيعتها كفرع أصولي، فإن لجغرافية المدن علاقات ارتباط وثيقة بالفروع الأخرى، وعلى الأخص بالجغرافيا الطبيعية وأشكال الأرض، وفي الجغرافيا البشرية بالاقتصادية أساسا: التجارة وجغرافية الصناعة والتعدين والنقل كما ترتبط في نوحي هامة بالجغرافيا السياسية، وفي نواحي أخرى بجغرافية السكان. وعلاقتها بالجغرافية التاريخية لا شك فيها، بل إن البعض يرى أنه لتكون دراسة المدينة صحيحة لابد أن تكون دراسة في الجغرافيا التاريخية[3]. وفي هذه الزاوية ستبدو أهمية علم أسماء الأماكن Toponymie[4] إذ كثيرا ما يكون الاسم وثيقة جغرافية أو أثرا جغرافيا له دلالته الطبيعية: hydronymie, oronymie أو البشرية: anthroponymie[5]. وقد تقدمت هذه الدراسات الخاصة على يد ألبير دوزا Dauzat في فرنسا. لكن الأهم في علاقات جغرافية المدن أنها لا تنفصل عن إطار الجغرافيا الإقليمية، فالاحتفاظ به في الذهن دائما يؤدي إلى إثراء جغرافية المدن كما أن دراسة جغرافية المدن

---

(1) Hartshorne, p. 280.

(2) Spirit & Purpos, p. 152.

(3) Mitchell, J. B. Historical Geog. Lond, 1954, p. 125.

(4) Tulippe, O., Cousiderations sur la Géog. Dn Peuplement, Liége, 1932, p. 5, 25 – 6.

(5) Rostaing, Ch., Les Noms de Lieux, Coll. Que Sais – je?, Paris, 1945 pp. 5 – 8.

كفيلة بإثراء وتمكين الجغرافي الإقليمي. والواقع أن علاقة جغرافية المدن بالجغرافيا الإقليمية علاقة أوثق مما يقدر الكثيرون. فمما لا شك فيه أن دراسة مدينة ما هي كما يقول هارتسهورن نوع خاص من الجغرافيا الإقليمية[١]. كما يقرر باروز من قبله "أنها ببساطة مرحلة من الجغرافيا الإقليمية[٢]". وعلى العموم فمن الخير لجغرافي المدن أن يذكر دائما أنه جغرافي أولا وقبل كل شيء، وأن جغرافية المدن لا تقع "بجوار" فرع معين أو أكثر، وإنما هي في الواقع تقطع عبر كل الفروع الأخرى وتماسها.

٢ – كيف ننظم مضمون جغرافية المدن؟ ما هو التبويب السليم لها؟ رأينا أن ظهور الكتب الأصولية textbooks في المادة دليل على بدء نضجها، ولكن قلتها والاختلاف الشديد بينها في تنظيمها للمادة دليل على أن هذا النضج لازال في أول مراحله، وأن تنضيد حقائقها لم يستقر ويتبلور بَعْدُ على ترتيب شبه ثابت متعارف عليه كما في فرع قديم ناضج كالجيومورفولوجيا مثلا – مع ملاحظة الفارق الأساسي في هذا الصدد بين طبيعة الجغرافيا الطبيعية والبشرية. كذلك يشمل بعض هذه الكتب حقائق منقولة عن العلوم الأولية المقابلة يعوزها الهضم والتمثيل الجغرافي، وبعضها يدرك قصوره كمحاولة تجريبية ويعتذر بأن[٣].

"such is the common lot of the pioneer."

وقد كان كتاب لافيدان Géog. Des Villes من أسبق الكتب الجغرافية ولكنه أضيق إلى حد بعيد مما يوحي العنوان[٤]، فهو يقتصر على الموضع وبعض الوظائف والتركيب البنائي للمدن. وقد تلاه بنحو عقد كتاب ديكنسون

---

(1) P. 398.

(2) Op. cit., p. 10.

(3) Taylor, Griff., p. viii.

(4) Sorre, p. 182.

City Region & Regionalism، وهو "ليس كتابا سهل القراءة"[1]، وهو وإن شمل دراسة وافية للتركيب الداخلي للمدينة وبعض نواحي الوظائف والتوزيع العام إلا أنه يعالج أساسا – كما يدل عنوانه – بابا محددا في جغرافية المدن هو "إقليم المدينة" أو مجالها، والمدينة في أي الإقليمية "الريجيونالزم". ولكنه في هذا المجال "أحسن مصدر جغرافي للموضوع برمته".

أما كتاب تيلور .Urban Geog فأعم وأشمل بكثير من سابقيه، فهو يعالج الناحية التاريخية بتفصيل بحسب الفترات ثم يعالج الناحية المعاصرة في حدود الضوابط الطبوغرافية وبعض الوظيفية، ويدرس عددا ضخما من الأمثلة الخاصة من مستويات مختلفة جدا قد تصل إلى لندن في ناحية وإلى قرى حقيقية في وديان الألب من ناحية أخرى، وقد يجمع تحت ضابط واحد بين "مدن مختلفة اختلاف فينا ونيوأورليانز وبرن فقط لأنها تقع على أنهار"[2]... وهو في كل هذا لا يقدم بالتأكيد نظاما أو برنامجا أصوليا منسقا، بل فيه كثير من التجاور البحت دون الترابط أو التسلسل. ويجمع النقاد على أن المحاولة مجرد كتالوج مفيد يختزل كثيرا من مقالات المجلات التي يصعب التوفر عليها أو الوصول إليها.

.."n'est pas un traité de géographie urbaine, mais apporte de nombreuse suggestions"[3].

ويضيف ديكنسون[4].

"The arrangement and content of the book reveal a dilemma of which, perhaps, the author was not aware".

---

(1) Gilbert, E. W., Geog. & Regionalism, in Taylor's Geog. in 20 th C., p. 370.

(2) Dickinson, Review in Geog. Rev., April, 1950, p. 339.

(3) Chabot, p. 20.

(4) Dickinson, ibid., pp. 339 – 46.

ثم ينتهي إلى:

".. the book falls short of its overall purpose.."

كذلك يصفه تريكار بأنه "manuel mediocre, fondé sur des theories préconçues" لأنه يحاول تطبيق نظرية تطورية هي مراحل المدن السبع، وإثبات العامل الجغرافي على المدن أي الحتم الجغرافي[1].

أما كتاب ديكنسون عن المدينة في غرب أوربا West European City فيلخص أولا عددا ضخما من المونوجرافات التفصيلية جدا للمدن الأوروبية ثم يستخرج منها قواعد أصولية: تاريخية أولا ثم معاصرة في ثلاثة موضوعات رئيسية: الوظائف والاستثمار الداخلي للمدينة land- use ثم التركيب form بما فيه الخطة وتواريخ المباني وارتفاعاتها والمنزل المدني ثم المناطق أو الحلقات المدنية داخل المدينة ثم خارجها أي إقليم المدينة.

وكان تريكار (١٩٥١) من أول الكتب شبه الكاملة في الموضوع وهو يبدأ بمورفولوجية المدينة من الداخل ويتوسع عن عمد في دراسة لاندسكيب المدينة paysage كالمسكن المدني أشكاله ومواده والشوارع والأماكن المكشوفة واستغلالاتها، ويرى أنها لم تلق عناية كاملة من الجغرافيين. ثم يدرس إطار الحياة المدنية: الخطة بكل تفصيل وعلاقاتها وضوابطها المختلفة وأنماط المدن من حيث الخطة.. إلخ. ثم يدرس التركيب المدني – يعني الوظيفي – ويتخذ "الحي" وحدته الوظيفية، ويحلل كل حي بتفصيل، ثم يتتبع العلاقات بين الأحياء المختلفة حيث تشرح مبدأ Zoning وينقده. هذا هو الجزء الأول – في موروفولوجية المدينة. أما الثاني فعن تنظيم شبكة المدن: فيدرس توزيعها على سطح الأرض ونموها، ثم العلاقات بين المدينة والإقليم المجاور، ثم بين المدن وبعضها البعض من تراتب في الوظائف وصراع على مناطق النفوذ والمجال

---

(1) p. 45.

المدني، وأخيرا من حيث الحجم والتباعد في صورة أبحاث كريستالر.

وفي ١٩٥٢ ظهرت ثلاثة كتب بعضها قريب جدا من البرنامج الأصولي الكامل. لكن أولها، كتاب جورج La Ville، بعد مقدمة منهجية قصيرة يقدم بالتأكيد محاولة جديدة وهامة للغاية، لأنها بالذات في "الجانب المهمل" من جغرافية المدن وهو أقاليم المدن في العالم. فعلى أساس التطور التاريخي والحضاري وعلى أساس الوظائف الاقتصادية والنظم الاجتماعية يقسم مدن العالم إلى سلاسل مدنية grandes series urbaines. وهذه الأقاليم مرسومة بريشة عريضة، ولكنه يمثل لها بأمثلة تفصيلية تماما لمدن منتخبة. فالكتاب لا يقدم برنامجا أصوليا ولكنه يضيف فصلا جديدا هاما. ويلخص Zelinsky نقد الكتاب في أنه أساسا في قالب قصة رحلة travelogue، ولكن حتى كذلك "لم ينجح تماما في عمله المحدود" لأنه لا يقدم تغطية إقليمية كاملة أو متجانسة "fragmentary"، وأسرف في الاهتمام بالعامل الاقتصادي الاجتماعي حتى لقد يتساءل البعض عما إذا كان الكتاب اجتماعيا قبل أن يكون جغرافيا، والخلاصة أن "George has failed to produce a complete theory of urban geography[1].

أما الثاني فكتاب شابو وهو على صغره أقرب محاولة على الأرجح إلى البرنامج الأصولي الكامل. فهو يقسم المادة إلى ثلاثة أقسام رئيسية – فللمدينة أولا وجهان، فلها كالفرد حياتان[٢]: حياة عامة عاملة فهي تعمل لتعيش: هذه هي الوظائف، فكان الكتاب أول من أفرد للوظائف مكانا وافيا في الموقع الصحيح. ثم هناك الحياة الخاصة الشخصية كيف تنظم المدينة حياتها الداخلية ومشاكلها الشخصية، كيف تنام، كيف تتغدى كيف تتنقل.. إلخ. فهذه هي دراسة المدينة من

---

(1) Zelinsky, Wilbur. Review of Pierre George. Econ., Geog., April, 1956, pp. 185 – 6.
(2) p. 19.

الداخل، بفصولها من موضع وخطة ومسكن مدني ونمو بنائي ومناطق المدينة الداخلية وتخطيطها، ثم الحياة العامة من نواحي ديموغرافية وحركة مواصلات وتموين وخدمات بلدية.. وأخيرا وثالثا هناك دراسة المدينة في الإقليم: إقليم المدينة، وشبكة المدن في الإقليم، ودرجة التمدين.

أما الكتاب الثالث سور فيبدأ بمقدمة في الظروف التاريخية والجغرافية لنمو المدن، تشمل الأولى عرضا تاريخيا إحصائيا قصيرا ونشأة وانحدار المدن، وتشمل الثانية الموقع والموضع معا. وبعد هذا تأتي دراسة الوظائف بالتفصيل ثم لاندسكيب المدينة paysage بما فيه الخطة ونوايا المدن والعزل الجنسي والحضاري. ثم يفرد فصلا للمدن الأمهات metropoles يعالج خصائصها وأحجامها والمجتمعات المدنية conurbations. وبعد هذا يدرس تركيب المدينة الداخلي بأقاليمها الحلقية وظيفيا وموروفولوجيا وسكانيا. ثم يلي فصل عن سكان المدن ووظائف المدن الداخلية من تموين وخدمات بلدية ومواصلات... إلخ، يقابل فصل الحياة العامة vie communautaire في شابو. ويعقد بعد ذلك فصلا عن المدينة كبيئة بشرية: كثافتها السكانية والمناخ المحلي المدني microclimat والوفيات والمواليد والأمراض والهجرات. وأخيرا يأتي فصل عن المدينة والريف: أي إقليم المدينة.

وهناك أخيرا كتاب سميلز يبدأ بعرض تاريخي قصير تحت عنوان أصول وقواعد المدن، ثم يدخل به إلى الفترات المعاصرة تحت نفس العنوان ولكن في صيغة لا يمكن أن نخطئها: دراسة وظائف. ثم يلي فصل عن إطار المدن: الموضع ثم الموقع. ثم فصلان عن مورفولوجية المدينة: أقاليمها الداخلية أولا ثم نموها ثانيا. وأخيرا فصل ختامي عن المدينة والإقليم – إقليم المدينة.

من هذا العرض نرى أن البرامج تتفاوت كثيرا، وليس منها ما هو جامع مانع تماما، كما أن هناك مجالا لبعض النقد والتعديل حتى نضع برنامجنا نحن

هنا. فكما يقرر زلنسكي، المادة الخام لجغرافية شاملة لمدن العالم تعد الآن موفورة تماما وأن:

"It would seem that the time is ripe for someone to step forward and develop these priniciples more fully into the rich, coherent body of theory that is now within reach".

ولكنه يضيف بحق أن هذه ستكون مهمة قاصمة للظهر!.. [1]. ولهذا فأول لابد من الإصرار على البدء بالنواحي الكبرى العامة لجغرافية المدن، النواحي الإقليمية، أو ما قد يسمى "بجغرافية المدن الخارجية" تمييزا لها عن دراسة المدينة نفسها من الداخل أو "جغرافية المدن الداخلية". أي في منهج تضيق معه بؤرة عدسة الدراسة باطراد من العام إلى الخاص – بعكس تريكار، ويقسم الكتاب إلى جزءين أساسيين. ففي الجزء الأول ينبغي أن يفصل الأساس التاريخي كباب أول يأتي في الصدارة، لأن أغلب المدن تضرب بجذورها في الماضي وربما كان بعضها يمثل إلى حد كبير "تاريخا محفوظا أو مجمدا"، كما أن الأساس التاريخي في ذاته أساس تصنيفي هام في أقاليم المدن. ومثل هذا الأساس التاريخي ينتهي بنا إلى الصورة التوزيعية الإحصائية العامة للمدنية وبهذا يقدم المادة الخام الماضية والمعاصرة التي لابد أن تسبق وضع الكليات والتعميمات. وتبدأ هذه بباب في دراسة وافية للوظائف، لا للتوزيع وإنما لتحليل طبيعتها وعملياتها وضوابطها. ودراسة الوظائف هي دراسة "مبرر وجود" المدن raisons d' être وتغطى بذلك بطريقة منهجية منظمة تلك العناوين الشائعة دون أن تكون وحدات دراسية مستقلة مثل "أصول" المدن Origins أو "نشأة" المدن أو أسس المدن Bases، أو تطور ونمو وانحدار المدن، Development, Growth, Evolution, Decline... إلخ لأن هذه تمثل إما

(1) Loc.cit.p.186.

موضوعات خلاسية متنافرة أو واسعة جدا يمكن أن تبتلع الجزء الأكبر من كل المادة، وإما أجزاء صغيرة من موضوع كامل. وبعد دراسة الوظائف يمكن أن ننظر إلى توزيع المدن – التوزيع بالمعنى الجغرافي، وذلك بتحليله إلى عوامله الأولية الثلاثة: التباعد والحجم والموقع، على هذا الترتيب من العام إلى الخاص. هذا يؤلف الباب الثالث. أما وضع التوزيع إحصائيا أو جغرافيا جملة أو تفصيلا في آخر الكتاب بعد أن تكون الدراسة الداخلية قد انتهت كما يفعل البعض فغير منطقي أو مطرد، كما أن الحاجة إليه تظهر قبل ذلك فيبعثر جزء منه أحيانا في تضاعيف الدراسة الخارجية والباقي في آخر الكتاب، ربما بكثير من التكرار. وهنا غالبا تنهي معظم الكتب الجزء الأول أي الدراسة الخارجية وتدخل إلى جغرافية المدينة الداخلية، ولكنها تصطدم فيها بالحاجة إلى دراسة مظاهر عامة منها لا تتباين داخل المدينة الواحدة وإنما بين المدن المختلفة أي مدن الأقاليم المختلفة: مثل المسكن المدني الذي يضعه شابو في دراسة مورفولوجية المدينة دون انسجام مع تباين المسكن المدني داخل المدينة، ومثل ديموغرافية المدن كنظام وتركيب عام يختلف عن ديموغرافية الريف بخصائص معينة مدنية الأصل، ولذا يؤجله شابو وسور إلى آخر الكتاب بعد أن يكون قد انتهى من الدراسة الداخلية ومن قبلها الدراسة الخارجية، مما لا يجعل تسلسلها منطقيا. كذلك أصبحت قاعدة لا تناقش في كل المؤلفات معالجة "إقليم المدينة أو مجال المدينة" Urban Field Region في آخر الكتاب بعد الانتهاء من دراسة المدينة الداخلية. ومع ذلك فالمنطق والواقع يوضحان أن هذه الدراسة ليست مترتبة على دراسة المدينة ولا علاقة حتمية بينهما بل هي ترتبط مباشرة وتترتب توا على عنصري الوظيفة والتوزيع، وهي كذلك ولذلك مظهر من الدراسة "الخارجية" للمدن. ولهذه الأسباب نقترح إضافة باب رابع وأخير إلى الدراسة الخارجية تحت عنوان إيكولوجية المدن الإقليمية يشمل ثلاثة عناصر: المسكن المدني، ثم ديموغرافية المدن، ثم إقليم المدينة. وهنا نلاحظ أن فصلا مثل "المدن

والحضارة" عند سميلز قد استبعد من برنامجنا لأن هذا الموضوع ليس وحدة مستقلة بل هو يقطع خلال كل عناصر المدينة تقريبا أي معظم فصول الكتاب فهو "كنمو" المدن عنوان مركب مطاط، ولذا نرد أجزاءه إلى أماكنها الطبيعية في البرنامج. والآن يمكن لدراسة المدينة الداخلية أن تبدأ، وهي التي نرى أن تقتصر على العناصر التي تتباين داخل المدينة الواحدة لا بين مدينة وأخرى أي إقليم وآخر. ومن الطبيعي أن تبدأ هذه الدراسة بباب في التركيب الخارجي أي الإطار الخارجي لرقعة المدينة نفسها: وعناصره: الموضع فالنمو فالخطة. وهنا نلاحظ أن الموضع انفصل عن الموقع كثيرا ليقع كل منهما في مكانه الطبيعي. أما الجمع التقليدي بينهما فليس ضروريا ولا يخدم عرضا منهجيا معينا. ثم يمكن أن ندخل المدينة في باب عن التركيب الداخلي أي تباينها ومناطقها الداخلية. ويشمل هذا العمليات الإيكولوجية التي تضبط هذا التركيب، ثم ندرس عناصر هذا التباين أصوليا، ثم ندرس تجمعاتها الإقليمية أي أقاليم المدينة الداخلية. وهكذا ينتهي الكتاب، ولكن الكتاب الأول – الكتاب الأصولي systematic. فلا زال هناك لكي نستكمل البرنامج الكامل أن ندرس أقاليم المدن في العالم أي الدراسة الإقليمية، وهي بطبيعة الحال تشكيل في قالب جديد لحقائق الكتاب الأصولي مع الاهتمام بإبراز الشخصيات الإقليمية لمناطق المدن في العالم. وهذا وإن كان يعني مباشرة وبالضرورة تكرارا لكثير من مادة الجزء السابق – تكرارا لا مفر منه ولا يُعتذر له كما يعلم كل جغرافي – إلا أنه تكرار جزئي لأنه انتخابي ينتقي من المادة عناصر وحقائق معينة هي التي تمنح الشخصية الإقليمية. ولابد أن نحدد أولا أسس تصنيف الأقاليم وهي تستمد من الأقاليم التاريخية والوظيفية والتوزيعية والمورفولوجية، أي التي تقابل أبواب الكتاب الأصولي. وبعد هذا التحديد ووضع شبكة الأقاليم المدنية الكبرى يمكن أن تبدأ دراسة كل إقليم بالتفصيل. وهنا لا نرى دراسة "أمثلة وعينات" لمدن مفردة بالتفصيل الكامل كما يفعل بيير جورج وديكنسون؛ **أولا:** لأن مثل هذه الدراسات هي جزء من

الجغرافيا الإقليمية بمعناها العام لا من جغرافية المدن الأصولية، **وثانيا**: لأنها بشدة تفصيلها المحلي البحت تمثل انقطاعا خطيرا في تسلسل الصورة الإقليمية العامة وفي مقارنة خصائص الشبكات المدنية الإقليمية. ولهذا فليس في عمل أصولي عن جغرافية المدن مكان لمونوجرافات المدن المفردة.